الفصل الرابع
مكانته الأدبية

١ - موازنة موضوعية وفنية :

- تمهيد ٠

أ - بينه وبين الشاعر خليل مردم ٠

ب - بينه وبين الكاتب محمد كرد علي ٠

٢ - آراء الدارسين والنقاد ٠

obeikandl.com

obeikandl.com

١ - موازنة موضوعيّة وفنّيّة :

تمهيـــد :

الموازنة ضرب من ضروب النقد ، يتميّز بها الجيد من الرديء ، وتتضح من خلالها وجوه القوة والجمال ، أو الرداءة والضعف في أساليب البيان[١].

ومع أن بعض النقاد هوّن من شأن الموازنة التي تُساق في داخل الأدب القومي الواحد[٢] ، يُجمع كثير من الأدباء والنقاد على أهميتها ويرون أنها من أدقّ أنواع النقد وأكثرها خطرا لما يعتورها في كثير من الأحيان من الأحكام الجاهزة الجائرة ، ومن الميل إلى تفضيل أديب على أديب ، أو شاعر على آخر .

ومن أجل ذلك كان حازم القرطاجني[٣] ، الذي سمّاها « المفاضلة » ، يرى أنه لايمكن تحقيقها ، ولكنها تكون على سبيل التقريب وترجيح الظنون[٤]، ومن أجل ذلك أيضا اشترط زكي مبارك[٥] ، على الناقد ، ألا يخضع لغير الحاسة الفنية عند الموازنة[٦].

وللموازنة تاريخ بعيد، إذ إن أقدم صورها التي بلغتنا ، مايذكر في قصة احتكام امرئ القيس[٧]وعلقمة الفحل[٨]، إلى أم جندب[٩]، ومايروى عن احتكام الشعراء إلى

---

(١) انظر : الموازنة بين الشعراء ٦ ، زكي مبارك ، مكتبة مصطفى البابي الحلبي بمصر ، الطبعة الثالثة ١٣٩٣هـ ، بتصرف .

(٢) انظر : الأدب المقارن ١٣ .

(٣) حازم القرطاجني (٦٠٨ - ٦٨٤ هـ) أديب ، من العلماء ، له شعر ، من أهل قرطاجنة بالأندلس ، من كتبه منهاج البلغاء . (الأعلام ١٥٩/٢) .

(٤) انظر : منهاج البلغاء وسراج الأدباء ٣٧٤ ، حازم القرطاجني ، تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، الطبعة الثالثة ١٩٨٦م .

(٥) زكي مبارك (١٣٠٨- ١٣٧١هـ) أديب من كبار الكتاب المعاصرين ، امتاز بأسلوب خاص ، من كتبه النثر الفني في القرن الرابع ، ومدامع العشاق والتصوف الإسلامي . (الأعلام ٤٧/٣) .

(٦) انظر : الموازنة بين الشعراء ١٥ .

(٧) امرؤ القيس الكندي (نحو ١٣٠ - ٨٠ ق هـ) الملك الضليل أشهر شعراء الجاهلية ، ثار يطلب ملك أبيه ، ورحل إلى الروم يستنجدهم ومات في طريق عودته ، وله ديوان مطبوع . (الأعلام ١١/٢) .

(٨) علقمة الفحل (... - نحو ٢٠ ق هـ) شاعر من الفحول ، له ديوان شعر شرحه الأعلم الشنتمري . (الأعلام ٢٤٧/٤) .

(٩) انظر : تاريخ النقد الأدبي عند العرب ٢٥ ، طه أحمد إبراهيم ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط الأولى ١٤٠٥هـ .

النابغة الذبياني[١] ، الذي كانت تضرب له قبة من أدم في سوق عكاظ [٢].

« وفي صدر الإسلام كانت الموازنة ... بين شعراء الرسول صلى الله عليه وسلم وخطبائه من ناحية ، وبين شعراء الوفود العربية من ناحية أخرى ، وكان العصر الأموي زاخراً بالموازنة بين الفحول والغزلين والسياسيين من الشعراء ، وبين الخطباء والأدباء »[٣].

وفي العصر العباسي نجد ضربا آخر من ضروب الموازنة ، حينما كان يوكل إلى بعض الأثيرين من الشعراء ، ترتيب الشعراء الآخرين وتحديد مراتبهم في مجالس الخلفاء ، فكان أولئك المكلفون يلجؤون إلى وضع الشروط والمقاييس التي يبنون عليها آراءهم [٤].

كذلك كان عرض الأشعار على الشعراء المعروفين ، في مجالس الأدب ، مظهرا من مظاهر النقد المتقدم ، المشتمل على الموازنة بين القصائد المنشدة [٥].

وتعد موازنة الآمدي[٦] بين الطائِيَّيْن ، موازنة منهجية فريدة في النقد العربي[٧] ، ومثلها كتاب « الوساطة بين المتنبي وخصومه » للجرجاني [٨]، حيث اشتمل هذان الكتابان على « مسائل أدبية ، ونظرات وأدلة ، وحجج تذكر بصدد الشعراء الثلاثة ، وتنبعث عن النظر في أشعارهم »[٩].

---

(١) النابغة الذبياني (... - نحو ١٨ ق هـ) من فحول شعراء الجاهلية ، مدح المناذرة واشتهر باعتذارياته . (الأعلام ٣/٥٥) .

(٢) انظر : تاريخ النقد الأدبي عند العرب ١٨ .

(٣) أصول النقد الأدبي ٢٨١ ، أحمد الشايب مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ط الثامنة ١٩٧٣م .

(٤) انظر : الأندية الأدبية في العصر العباسي في العراق ٨٨ ، علي محمد هاشم ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ .

(٥) انظر : المرجع السابق ١٤٧ .

(٦) أبو القاسم الآمدي (... - ٣٧٠هـ) عالم بالأدب ، راوية ، من الكتاب ، من كتبه المؤتلف والمختلف والموازنة وله ديوان شعر . (الأعلام ٢/١٨٥) .

(٧) انظر : أصول النقد الأدبي ٢٨٣ .

(٨) علي بن عبدالعزيز الجرجاني (... - ٣٩٢ هـ) قاض ، من العلماء بالأدب ، له شعر حسن ، من كتبه تفسير القرآن وتهذيب التاريخ ، وكان مليح الخط . (الأعلام ٤/٣٠٠) .

(٩) تاريخ النقد الأدبي عند العرب ١٤٤ .

وممن تناولوا الموازنة بدراسة لابأس بها ، ابن الأثير[١]، وحازم القرطاجني الذي سماها : المفاضلة بين الشعراء ، ووضع لها شروطا ، ورأى أنها صعبة التحقيق[٢].

وهانحن أولاء نشهد عصرنا الحديث ، يتخذ الموازنة أساساً لأبحاثه ، نزولا على طبيعة الدراسات في أصح أوضاعها وأقوم سبلها[٣] .

فممن كتبوا فيها في العصر الحديث ، قسطاكي الحمصي[٤] ، في كتابه (منهل الورّاد في علم الانتقاد)[٥]، وزكي مبارك ، في كتابه (الموازنة بين الشعراء) ، وأحمد الشايب[٦] في كتابه (أصول النقد الأدبي) ، وفيه وضع شروطا للناقد حين يعمد إلى الموازنة[٧] ، وجعلها قسمين : تفسيرية وترجيحية ، كما اقترح خطة لها[٨] ، وجعل أصلها الأول أن يكون بين طرفي الموازنة اتفاق من ناحية واختلاف من ناحية أخرى[٩] .

ولشفيق جبري آراء مبثوثة في كتبه ، عن الموازنة ، فهو يرى أن من شروط الموازنة بين الأديبين ، أن يكونا في زمن واحد ، وأن يكون موضوعهما واحدا [١٠]، وقد يجوز الاستغناء عن شرط الزمن ، لاشتراكهما في غاية واحدة ، ومذهب واحد [١١].

---

(١) انظر : أصول النقد الأدبي ٢٨٥ .
وضياء الدين بن الأثير (٥٥٨ - ٦٣٧ هـ) وزير ، من العلماء الكتاب المترسلين ، تقلّب في عدة مناصب ، ومن كتبه (المثل السائر) و (كفاية الطالب) وديوان رسائل . (الأعلام ٣١/٨) .

(٢) انظر : منهاج البلغاء وسراج الأدباء ٣٧٦ ومابعدها .

(٣) انظر : أصول النقد الأدبي ٢٨١ " بتصرف " .

(٤) قسطاكي الحمصي الحلبي (١٢٧٥-١٣٦٠هـ) من الكتاب النقاد ، عمل في التجارة ورحل إلى فرنسا وبعض دول أوروبا ، من آثاره ديوان شعر ، و (أدباء حلب) . (الأعلام ١٩٧/٥) .

(٥) انظر : أصول النقد الأدبي ٢٨٦ .

(٦) أحمد الشايب (١٨٩٥ - ؟) أديب ناقد ، عمل أستاذا في جامعة القاهرة ، وله عدة كتب ، منها (تاريخ الشعر السياسي) و (الأسلوب) و (تاريخ النقائض) وله مشاركات صحفية وإذاعية وعلمية كثيرة (نقلا عن تاريخ الشعر السياسي ٤١٣) .

(٧) انظر : أصول النقد الأدبي ٢٨٧ .

(٨) انظر : المرجع السابق ٢٨٨ .

(٩) انظر : المرجع السابق ٢٨٩ .

(١٠) انظر : أين تعلم المتنبي بقلم شفيق جبري ، ص ٢٤٠ ، مجلة المجمع ، ج ٦ ، مج ١٠ .

(١١) انظر : دراسة الأغاني ٢٢ .

ومهما يكن ، فإن الموازنة نقد ووصف ، « فالذي يوازن بين شاعرين .. يصف مالكل منهما وماعليه ، بأدق مايمكن من التحديد »[١]، وتلك الموازنة تنتهي إلى إبراز شخصية كل منهما ، ومايمتازان به من سمات ، ومايتفرد به كل منهما من الصفات[٢]، كما أن الموازنة بين الأساليب ، تكشف « عن الظلال التي يعيش فن الكاتب أو الشاعر في إطارها ، وتبرز نقط الالتقاء أو التفارق بينه وبين غيره »[٣].

وفي هذا الفصل أعقد موازنة موضوعية وفنية ، بين شفيق جبري وخليل مردم بوصفهما شاعرين ، وبين جبري ومحمد كرد علي كاتبيْن ، والله أسأل العون والسداد .

---

(١) الموازنة بين الشعراء ٢٢ .

(٢) انظر : الأدب العربي في آثار المحدثين ٥٦ ، د . السيد مرسي أبو ذكري ١٩٨٧م " بتصرف " .

(٣) المرجع السابق ٥٦ " بتصرف " .

obeikandl.com

أ - موازنة موضوعية وفنية

بينه وبين خليل مردم :

خليل مردم بك :

هو خليل بن أحمد مختار مردم[١] ، ولد في دمشق عام ١٨٩٥م ، حسب ماذكره في سيرته التي خطها بقلمه[٢] ، ولاعبرة إذاً بقول من قال إنه ولد عام ١٨٩٦م[٣] ، ومن قال إنه ولد عام ١٨٩٨م[٤].

درس في الكُتّاب ، ثم في مدرسة الملك الظاهر الابتدائية ، ثم في الإعدادية ، ووجد في نفسه ميلا إلى الشعر والأدب ، فشرع يحفظ منه الكثير وينظم ، وكان أكثر اعتماده في الأدب على دراسته الشخصية[٥].

وبعد أن كاد يتم الرابعة عشرة من عمره ، فقد أباه ثم أمه ، فأثّر ذلك في طباعه وأخلاقه ، حتى صار يؤثر الصمت والعزلة[٦].

وبعد جلاء الأتراك عن دمشق ، وقيام الحكومة العربية عين مميّزا لديوان الرسائل العامة[٧]، ثمّ أنشأ مع لفيف من الأدباء - فيهم شفيق جبري - الرابطة الأدبية التي أصدرت مجلة باسمها[٨] ، ولكن السلطات الفرنسية لم تلبث أن ألغتها[٩].

وفي عام ١٩٢٦م رحل إلى الإسكندرية ، خوفا من بطش الفرنسيين به ، بعدما نشر كثيرا من القصائد المناوئة لهم ، ثم رحل إلى انجلترا[١٠] ، وعاد بعد أربع سنوات

---

(١) الأعلام ٢/٣١٥ .
(٢) انظر : الأدب العربي المعاصر في سورية ٢٨٠ .
(٣) انظر : خليل مردم ، بقلم أحمد الجندي ، ص ١٠١ ، مجلة العربي ، العدد ١١ ، ربيع الأول ١٣٧٩هـ .
(٤) انظر : رجالات في أمة ١/٦٨ .
(٥) انظر : الأدب العربي المعاصر في سورية ٢٨٠ .
(٦) انظر : رجالات في أمة ١/٦٨ .
(٧) انظر : الأدب العربي المعاصر في سورية ٢٨٠ .
(٨) انظر : رجالات في أمة ١/٧٠ .
(٩) انظر : الأدب العربي المعاصر في سورية ٢٨٠ .
(١٠) انظر : شاعر الشام خليل مردم ٢٤ ، د . محمد عبدالمنعم خفاجي ، دار الجيل ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ .

درس في أثنائها الانكليزية ، وحصل على شهادة تعادل الدكتوراه[١] .

وعمل بعد عودته مدرسا للأدب العربي ، في الكلية العلمية الوطنية بدمشق[٢] ، وتولّى بعد ذلك مناصب عديدة ، منها : أمانة سر المجمع العلمي العربي ، ووزارة المعارف ، ووزارة الخارجية ، ورئاسة المجمع العلمي ، وهي آخر الأعمال التي تولاها [٣].

كما اشترك في إصدار مجلة الثقافة ، مع عدد من الأدباء ، ولكنها لم تعش إلا سنة واحدة [٤].

وكان من الأعضاء المراسلين لمجمع اللغة بمصر عام ١٩٤٨م[٥] ، والمجمع العلمي العراقي عام ١٩٤٩م ، والمجمع العلمي السوفياتي ١٩٥٨م [٦]، « ولم يسبق لعربي غيره أن كان عضوا في هذا المجمع »[٧]، كما منح عضوية في كثير من المؤسسات العلمية والمدارس الاستشراقية [٨].

وفاتـــه :

قضى خليل مردم بك نحبه ، صبيحة الثلاثاء الحادي والعشرين من شهر تموز عام ١٩٥٩م ، وأقيم لتأبينه حفل كبير ، تحدث فيه عدد من الأدباء [٩].

ولخيل مردم ولد شاعر ، هو عدنان [١٠]، الذي اعتنى بآثار أبيه فنشرها بعد وفاته .

---

(١) انظر : المرجع السابق ٢٤ .
(٢) الأدب العربي المعاصر في سورية ٢٨١ .
(٣) انظر : المرجع السابق ، الصفحة نفسها .
(٤) انظر : المرجع السابق ، الصفحة نفسها .
(٥) مجلة مجمع اللغة العربية بمصر ، ص ١٠٩ ، العدد ٧ ، ١٩٥٢م .
(٦) الأعلام ٣١٥/٢ .
(٧) تقارير الخليل الدبلوماسية هامش ص ٦ ، تحقيق عدنان مردم ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط الأولى ١٤٠٢هـ .
(٨) انظر : خليل مردم بك ٤١ ، فادية المليح ، دار الفداء ، دمشق ، الطبعة الأولى ١٩٩١م .
(٩) انظر : المرجع السابق ٤٢ .
(١٠) عدنان مردم بك (١٩١٧ - ١٩٨٨م) شاعر محافظ ، أصدر عدة دواوين منها : نفحات شامية ونجوى ، وله مسرحيات شعرية منها : دير ياسين وغادة أفاميا والعباسة ، وقد ألفت في أدبه بعض الكتب . (تاريخ الشعر العربي ٧٠٨) .

آثـــاره :

أثبت عدنان مردم آثار والده المطبوعة والمحققة ، وهي على النحو التالي :

١ - شعراء الشام في القرن الثالث .

٢ - رسائل أدبية عن طائفة من أئمة الأدب ، ظهر منها :

أ - الجاحظ .　　ب - ابن المقفع .

ج - ابن العميد .　　د - الصاحب بن عباد .

هـ - الفرزدق .　　و - أبو نواس .

وتحت الطبع كتاب عن ابن الرومي [١].

٣ - جمهرة المغنين .

٤ - الأعرابيات .

٥ - أعيان القرن الثالث عشر .

٦ - شعراء الأعراب .

٧ - دمشق والقدس في العشرينات .

٨ - الشعراء الشاميون .

٩ - رسائل الخليل .

١٠- يوميات الخليل [٢].

١١- تقارير الخليل الدبلوماسية .

١٢- أمالي الخليل والفولكلور السوري . ولمّا يطبع [٣].

أما الدواوين التي حققها ، فهي :

١ - ديوان ابن عُنَيْن .　　٢ - ديوان ابن حيوس .

٣ - ديوان علي بن الجهم -　　٤ - ديوان ابن الخياط [٤].

كما اشترك في تحقيق كتاب : (معاني الشعر) للأشناندانى ، في عام ١٩٢٢م [٥] .

أما إنتاجه الشعري ، فقد جمع في ديوان سمي باسمه ، واعتنى بشرحه وتحقيقه ولده عدنان ، وقدّم له الدكتور جميل صليبا عضو المجمع العلمي العربي .

---

(١) انظر : أبو نواس ٩٨ ، تاليف خليل مردم ، تحقيق عدنان مردم ، الشركة المتحدة ، بيروت ، ط الأولى ١٤٠٦هـ.

(٢) تقارير الخليل الدبلوماسية ٢٣٩ .　　(٣) المرجع السابق ٢٤٠ .

(٤) المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

(٥) انظر : خليل مردم بك ٧٣ لغادية المليح .

obeikandl.com

دواعي الموازنة بينهما :

كثيرا مايقرن شفيق جبري بخليل مردم ، فهما من أعلام الشعر ، وممن حَظُوا بلقب (شاعر الشام) [١]، وممن شاركوا في كتابه النثر .

ولهما ملامح مشتركة ، فهما ينتميان « إلى جيل الدهشة والانبهار ... الجيل الذي كان يعاني من وطأة الاستبداد ، ويتلهف على طعم الحرية ، ... ويستشرف ألق الاستقلال » [٢].

ولقد كان معاصروهما « يوازنون بينهما ، كما وازنوا بين القدماء » [٣]، ولذلك أسباب ، ودواعٍ عديدة جعلت عقد هذه الموازنة أمراً عادلا وسائغا في مقام النقد .

ومن تلك الدواعي والمسوّغات : اشتراكهما في الانتماء الوطني ، وتقارب سنّيْهما ، واتفاق مشاربهما ، إذ إنهما عاشا في بيئة محافظة ، وثقفا ثقافة إسلامية ، ونهلا من معين التراث ، وجمعا إلماما بالأدب العربي والأدب الغربي[٤] ، وإن زعم بعض الدارسين أنهما لم يستطيعا الإفادة من مطالعاتهما الواسعة في الآداب الأجنبية[٥].

ومن تلك الدواعي أيضا الاشتراك في تأليف الدراسات الأدبية عن رجالات الفكر والفن[٦] ، وقد شبّهها من حيث الجمع بين النثر والشعر بأبي تمام والبحتري[٧].

ومن الدواعي القوية لعقد هذه الموازنة ، الشبه الكبير بين شخصيتيهما ، فهما ذوا خلق رقيق وطباع مهذبة ، يؤثران الصمت ، ويميلان إلى السكون [٨].

---

(١) انظر : خمسة أيام في دمشق الفيحاء ١٠٠ ، وانظر كذلك : رجالات في أمة ٦٨/١ .
(٢) صناع الأدب ١٣٦ .
(٣) الشعراء الأعلام في سورية ١٩٨ ، وانظر كذلك : مقال أحمد الجندي عن (شفيق جبري) بمجلة العربي ، ص ٦٨ .
(٤) انظر : مقدمة جميل صليبا لديوان خليل مردم ٦ ، تحقيق عدنان مردم ، دار صادر ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ ، وانظر كذلك : فصول في اللغة والأدب ١٤٧ .
(٥) انظر : النقد الأدبي الحديث في سورية ٩٨ .
(٦) انظر : النثر الأدبي الحديث في سورية ٣٧٤ .
(٧) انظر : صناع الأدب ١٥٦ .
(٨) انظر : رجالات في أمة ٦٨/١ ، وانظر أيضا : شاعر الشام خليل مردم ٣٣ لخفاجي .

وقد مرّ بالقارئ بسط لشخصية جبري ، في الفصل الأول ، تنطبق في كثير من سماتها مع ما اتسم به مردم الذي كان لطيف الخلق ، حسن العشرة ، متحببا إلى كل من يكلمه[١] ، منطويا على نفسه[٢] ، وكان إلى ذلك « صورة للرقة في حديثه ومجلسه ، ماتنقطع بشاشته عن خدينه »[٣].

وقد ظهر عنده الاستعداد للتشاؤم ، والميل إلى الوحدة ، والتركيز حول الذات ، وتقليص المخالطة الاجتماعية ؛ بسبب فقدانه والديه في سنّ مبكرة[٤].

وفي شعر مردم مايدل على ماجبلت عليه نفسه من رقة الطبع ، كقوله في خاتمة قصيدته عن (الضحية) :

فرق لها قلبي ولان ولم تزل * دموعي على أمثالها تتدفق[٥]

ويشير في موضع آخر إلى حبه للاعتزال ، وسيطرة الحزن على نفسه ، بقوله :

من كان يأنس بالأعياد مبتهجاً * فإنّني قد هجرت الأنس والطربا[٦]

وهو يذكّر بقول شفيق جبري :

ويؤنسني هجر الديار وأهلها * فلست أرى في الناس قاطبة أنسا[٧]

وفي مؤلفات مردم النثرية شواهد على بعض ما اتصف به ، كالحياء ورهافة الحس[٨] ، ويبدو لي أن الأحداث الجسام التي مرت بالشام ، وعاصرها هذان الشاعران ، ساعدت في صبغ نفسيهما بصبغة واحدة ، وجعلتهما ينزعان عن منزع واحد .

---

(١) انظر : مقدمة جميل صليبا لديوان مردم ٥ .
(٢) المرجع السابق ١٧ .
(٣) مقدمة سامي الدهان لديوان خليل مردم ٣٢ .
(٤) انظر : شخصيات ٣٧ ، د. إبراهيم الكيلاني ، نشر اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ١٩٧٣م .
(٥) ديوان خليل مردم ٨٥ .
(٦) المصدر السابق ٢٤٠ .
(٧) نوح العندليب ١ .
(٨) انظر مثلا : أبو نواس ٧٧ ، تأليف خليل مردم .

أولاً : الموازنة الموضوعية :

مما لاشك فيه أن اشتراك هذين الشاعرين في العصر والثقافة والطباع ، يجعل اتفاقهما في الموضوعات الشعرية أمرا واردا غير مستغرب .

١ - في الشعر الوجداني :

يجد القارئ لديواني الشاعرين ، نبرة أسىً عميقة ، تعود إلى ماجبلا عليه من رقة في الطبع ، وما شهدا في عصرهما من تسلط المستعمرين ، وماحلّ بالعرب بعامة وسورية بخاصة من نكبات وويلات ، يضاف إلى ذلك مالقيه مردم في حياته الخاصة ، حيث فقد والديه في سن مبكّرة ، ثم فقد ولده « الهيثم » ، الذي أصمت وفاته فؤاد أبيه ، « وسلبته صبره ، فاستسلم إلى يأس مميت »[١].

من أجل ذلك يكثر عندهما شعر التشاؤم والشكوى ، وهو عند خليل مردم أظهر وأعلى أثرا ، فهو يقول :

ينست فمالي في حياتي مطمع * فياموت عجّل ويك آن أواني[٢]

ويقول أيضا :

واسلمني دهري لكل ملمة * وانكرني صحبي وأدنى اقاربي

وكل خليلٍ كنت آمل ودّه * نأى ثانيا عطفيه عني بجانبي[٣]

وإذا كان مردم قد تمنى الموت (فياموت عجّل) ، فإن جبري اكتفى بترديد أساه وشكوى زمانه ، ولم يبلغ به الأمر هذا المبلغ ، ومع تأثرهما جميعا بالنزعة الرومانتيكية ، لم يكونا ذَيْنِكَ الحالمين البعيديْن عن الواقع ، وهو مايشهد به مشاركاتهما الوطنية والاجتماعية .

كما أننا نجد عند مردم نزعة صوفية ، نفتقدها في شعر جبري ، فله قصيدة عنوانها (الله)[٤] ، كانت فاتحة الديوان ، ومما قال فيها :

---

(١) يوميات الخليل ٥ ، تحقيق عدنان مردم ، مؤسسة الرسالة ، بيروت .
(٢) ديوان مردم ٣٧٣ .
(٣) المرجع السابق ٢٨٢ .
(٤) المرجع السابق ٣ .

لو صحّ في التمثيل أن يجد الورى * ربا كما يتصوّرونك اقدرا
وأراد ذاك الربُّ أن يتصورا * من أنت عاد عن البلوغ مقصّرا
بالعجز عن وعي الحقيقة يجهر

وفيها أيضا :

الذوق والوجدان والمعقول * والحبُّ آيات سمت وفصول
أما الجمال فإنه تمثيل * يدنو به التفسير والتفصيل
عَرَض صفا فأضاء منه الجوهر

وفي هذه القصيدة ألفاظ فلسفية كالعرض والجوهر والحب الإلهي والمعقول والحقيقة ، وكلها لا أثر لها في شعر جبري .

ومن الأغراض الكثيرة عندهما بكاء الشباب ، والتحسر على الماضي ، وهذا في الحقيقة دأب كل إنسان ، غير أن الشاعر حين يبكي شبابه يأتي بالمعجب المطرب ، وهو مانجده عند الشاعرين ، كما في قول جبري :

كم قد لهوتُ وكم لعبتُ مع الصبا * واليوم مالهوي وماتلعابي !
!صبو إلى الماضي وطال غيابه * يالهفتي من بعد طول غياب[1]

وقول مردم :

واهـا لأيام الشباب الغضّ * ماكان أهنا العيش لولم نمض
نعمتُ في ظلالها زمانا * نشوانَ من سكر الصبا ريّانا[2]

أما الغزل ، فقد كان للشاعرين فيه مشاركة متفاوتة فجبري ذو شعر غزلي قليل يغلب عليه التصنّع ، أما مردم فشعره الغزلي كثير ، غير أن الغالب عليه التصنّع كذلك ، فأنت حين تقرأه لاتحس بالعاطفة الصادقة أو اللوعة الحقيقية ؛ لأن أكثره تقليد للقدماء ، وتكلُّف للمعاني ، ومَيْلٌ إلى البهرجة اللفظية ، فمن غزله التقليدي قوله :

ميلا إلى مسرح الآرام والغفر * ولاتلوما فوجدا عِيْل مصطبري

---

(١) نوح العندليب ٣٥٨ .
(٢) ديوان مردم ١٠٤ .

بي من هوى الغيد ربات التدلل ما * لو كان بالفلك الدوار لم يدر[١]

ومن المعاني المتكلفة فيه قوله :

طال التقاطع بيننا * والوصل كان كلا ولم[٢]

وقد تجد عنده صراحة في تناول بعض المعاني ، مما لاتجد عند جبري ، كقوله :

إذا خلونا جعلنا شرط ليلتنا * من نام نبهه اليقظان بالقبل

فصرتُ أنومَ من فهد بيقظتها * كيما تقبلني عَلاً على نهلِ

وإن غفَتْ أو بدتْ في عينها سِنة * أهويتُ الثمها والشرط أملك لي[٣]

ومن شعره الغزلي الذي غلب عليه جفاف الفلسفة قوله :

قد كان قلبي كالحديد قساوةً * قبل الصبابة لا مثيل لطبعه

لكنه لما تعشّق لان ، إذْ * سطعت أشعةُ عينٍ من أهوى به[٤]

إن جبري ومردم يتفقان ، في كون شعرهما الغزلي منخفضا عن سائر شعرهما[٥] ، ولكنَّ تميّز مردم يبدو في الرثاء ، وأرق رثائه مانظمه في بكاء ولده الهيثم ، ومنه قوله :

طال صمتي ، حتى لقد ظنه النا * س عزاء ولات حينَ عزاء

إن للحزن غصةً تمنع البا * كيَ من رفع صوته بالبكاء

طولُ عيش المفجوع مهما تأسّى * بعد فقد الأحباب طولُ عناء

ألمُ الجرح حين يبردُ ، والعهـ * ـدوح الأسُه بطول الدّماء[٦]

أما مراثي جبري ، فإنها منصرفة في الغالب إلى معانٍ أخرى ، كبكاء الوطن وتمجيد الشهداء ؛ لكونه لايحبُّ أن ينظم رثاءً لايمليه القلب ؛ ولذا عُدّت أكثر مراثيه داخلة في الشعر الوطني، ولعل من أسباب عدم تميّزه في الرثاء أنه لم يعانِ ما عاناه مردم من ألم الفقد وفجيعة الثكل.

---

(١) المرجع السابق ١٩٩ .
(٢) المرجع السابق ١٧١ .
(٣) ديوان مردم ١٨٥ .
(٤) المرجع السابق ٢٠٥ .
(٥) انظر : الشعراء الأعلام في سورية ١٣٠ .
(٦) ديوان مردم ٣٦٨ .

وليس معنى ذلك أن كل مراثي مردم ، كانت وجدانية محضة ، ففيها المتكلف[١] ، الذي تمليه العلائق الاجتماعيّة ، وكأنما هي دين واجب في عنقه ، ومنها ماقصد به التأريخ للوفاة ، كرثاء أمه [٢].

على أن في بعض مراثيه تأملات فلسفية ، تمتزج بالتشاؤم ، كقوله :

كل غصن في الأرض ينبت رمز * لِبلى كلِّ قامة هيفاء
مبتغي أسوة بكل حزين * مستعينٌ بالداء لا بالدواء
ربما يصبر الحزينُ ولكن * صبرَ عين على القذى رمداء[٣]

وقوله :

تبصرْ تجدْ أن المنية يقظة * إذا كان عيش المرء في دهره حلما
إذا أعمل الإنسان بالعيش رأيه * رأى غير مأفون حقائقه وهما[٤]

ويتضح في هذه المعاني تأثره بأبي العلاء المعرّي .

وقارئ شعر مردم ، يجد فيه كثيرا « مما نجده عند الوجدانيين ، من تصوير لمظاهر الطبيعة المتصلة بشجون النفس أحيانا ، وبفرحتها أحيانا أخرى ، وتعبير عن وحشة الشاعر وتفرده .. »[٥] ، ووصفه للطبيعة مما لفت انتباه النقاد والدارسين ؛ لجودته وحيويته [٦]، وقد أجاد فيه مالم يُجِد في غيره ، وبينه وبين جبري في هذا الفن بون شاسع ، وذلك دأب الشعراء ، إذ تجد بعضهم « يحسن في طريقة من الشعر كالنسيب مثلا ، ولا يحسن في طريقة أخرى ، كالهجاء مثلا ، وآخر يكون أمره بالضد من هذا »[٧].

إن الجمال « هو المحور الذي تدور حوله أشعار مردم »[٨]، وهذا سرّ إبداعه في شعر الطبيعة ، إذ خصها بقصائد كثيرة ، ووصف كثيرا من مشاهد الجمال في

---

(١) ديوان مردم ، انظر مثلا : ٣٧٦ و ٣٨٥ .
(٢) انظر : ديوانه ٣٧١ .
(٣) ديوان مردم ٣٦٨ .
(٤) المرجع السابق ٣٨١ .
(٥) الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر ٨٠ .
(٦) انظر مثلا : محاضرات في الاتجاهات الفكرية ١٥٧ ، وعبقريات شامية ٢٨ .
(٧) منهاج البلغاء وسراج الأدباء ٣٧٤ .
(٨) شاعر الشام خليل مدرم ٢٤٢ .

دمشق ، فقال واصفا بردى :

ما مرّ في بقعة إلا وخاطبها * طورا بغمغمة طورا بإفصاح

في كل مرحلة لحنٌ ، فمن هزج * إلى هدير إلى ترنيم نوّاح

إن دغدغته الصبا آبت بعَبْسته * لكنها عبسة السكّير للراح

وإن تململ في الوادي وضاق به * سمعت همهمة من صدر طلّاح

سمح فإن عارضته هوّة قُدُفٌ * أراك إقدام وثّاب ودلّاح[1]

وقال في الغوطة :

لله ما صنعتْ وما جاءتْ به * في الغوطتين يد الربيع الباكر

بسطت وثير قطيفة فوق الثرى * خضراءَ فيها كل لون زاهر[2]

إن من أسباب إجادة مردم في وصف الطبيعة اتحادَه بها ، ومزجَ انفعالاته الشخصية بما يصف ، كقوله يخاطب الليل :

ياساجي الليل كم هيّجت لي شجنا * وكم بعثت خيالاتي وأوهامي

بلغتَ بالصمت مايعيا البيان به * كم في سكونك من وحي وإلهام[3]

وبدهي أن يتأثر الوصف بمزاج الشاعر ووجهة نظره ، ويجعله يخلع على الموصوف من نفسه تفاؤلها أو تشاؤمها [4]، وهو ماتراه في قول مردم عند وصفه لبردى :

تحزّ في كبدي الذكرى وتوهجها * وربما فرّجت همي وأتراحي[5]

أو قوله في وصفه للغوطة :

والطير لو أبصرتَ أسعدُ عيشةً * ياليت للإنسان عيشَ الطائر[6]

فهو هنا يبث شعوره الخاص ، الذي ملؤه البرم بالحياة ، وتمنّي عيش سوى عيش الإنسان .

---

(١) ديوان مردم ٦١ و ٦٢ .
(٢) المرجع السابق ٧٦ .
(٣) المرجع السابق ٥٩ .
(٤) انظر : الأسلوب ٩٠ .
(٥) ديوان مردم ٦٤ .
(٦) المرجع السابق ٧٩ .

وفي المقابل نجد أن جبري لم يستطع الاتحاد بالطبيعة ، ولم يمتزج شعره فيها بشعوره الخاص ، ولذا لم يكن عنده تميّز في هذا المجال[١].

ومن وجوه الشبه بينهما في شعر الطبيعة ، أن كليهما يجعل الطبيعة مدخلا لبث المشاعر الوطنية ، فمردم مثلا يقول في خاتمة قصيدته عن بردى ، مشيرا إلى المستعمرين :

قل للذي كدّر الصافي رويدك لا * تبغ الفساد به من بعد إصلاح
لم ترع حرمة واد بتّ تقذفه * بكل خطب يُشيب الطفلَ فداح[٢]

وجبري يقول كذلك في ختام قصيدة له - رامزا للوطن - :

انت الطليق فما تزا * ل من السهول إلى الحزون
وانا المبرّح بالسلا * سل مثل تبويح السجين[٣]

ولكل منهما قصيدة في وصف البحر ، قال عنهما جميل صليبا : إنهما من أحسن ماقيل في وصف البحر[٤] ، وهذا حكم متعجّل ، وفيه غمط لقدرة مردم الفنية ، بل إن قصيدة جبري في الحقيقة ليست وصفا للبحر ، وليس فيها عنه إلا أبيات خمسة هي مقدمة القصيدة ، ومنها :

عاج الخضم ولزلز الصدر * مالي ومالك ايها البحر
للعاصفات على شواطئه * دنق على الأيام مُدْلهم[٥]

وبقية الأبيات تصوّر حالة الوطن .

أما قصيدة مردم ففيها وصف ، ضاجّ بالحياة للبحر ومايعتريه ، وتأمّل قوله :

نفخَتْ في وجهه ريح الصبا * فعلاه مثلُ تغضين الجبين
وتراءى الموج فيه عُكَنا * دغدغتها غمزات العابثين[٦]

ثم إن خروجه في هذه القصيدة إلى وصف حالة الشام مع المستعمرين ، كان ألطف وأدقّ من خروج جبري الذي اكتفى بوصف سطحيّ ، كقوله :

---

(١) راجع مبحث الشعر الوجداني في الفصل الثاني من هذا البحث .
(٢) ديوان مردم ٦٥ .
(٣) نوح العندليب ١٠١ .
(٤) انظر : محاضرات في الاتجاهات الفكرية ١٥٧ .
(٥) نوح العندليب ٩٩ .
(٦) ديوان مردم ٩ .

الجـــزر يطـــوي من قلاقله * والمـــد ينـــشر ماطـــوى الجزرُ

ثم انتقل فجاءة قائلا :

إنـــي لأهدأ ثـــم يقلقنـــي * فكري ، أقض مضاجعي الفكر[١]

وأين هذا الانتقال المفاجئ من حسن التخلص الذي وفق إليه مردم ، في قوله :

بينمـــا التيـــار يعلـــو جبلا * إذ بـــه وادٍ يهول المبـــصرينْ

أتـــرى أمواجـــه انغاســـه * رُدّدت بـــين شهيـــق وأنـــين

لـــم تكـــن إلا كشعب ثائر * شنّها حربـــا علـــى المستعمرين[٢]

أضف إلى ذلك مافي قصيدة مردم من تأملات عقلية ، وإشارات وجدانية ناضجة ، كما أن له قصيدة أخرى وفّق فيها إلى وصف البحر وصفا حيا، ومنه قوله :

فهل رأيت حمى كالبحـــر ذا سعـــة * لايستباح وملكا ليس ينقـــرض

لـــولاه مانشـــأت سحب ولاهطلت * مزن فما منه حتى بالسما عوض

مابدلت يـــدُ إنســـان محاسنَـــه * ولا أقام علـــى اثباجـــه عـــرض[٣]

٣ - <u>في الشعر الوطني والسياسي</u> :

من الملامح البيّنة في الشعر السوري ، خلال الحقبة التي عاش فيها الشاعران ، « المناداة بالقومية العربية على أشكال مختلفة »[٤] ، وكان ذلك نتيجة لما شهده العرب من عسف الترك ثم المستعمرين كما سبق ذكره .

وقد كان اعتزاز شعراء الشام بتراثهم وأصالتهم هو المحرك لقرائحهم[٥]، فحينا يتغنون بأمجاد وطنهم الخاص ، وحينا بأمجاد العرب أجمع .

وعند الموازنة بين جبري ومردم من حيث كثرة الشعر الوطني والسياسي وجودته ، نجد تقاربا كبيرا بينهما ، لأنهما أعطيا المناسبات القومية الكثير من القصائد .

---

(١) نوح العندليب ٩٩ .
(٢) ديوان مردم ٩ .
(٣) المرجع السابق ٨٢ .
(٤) الشعراء الأعلام في سورية ٢٤ .
(٥) انظر : خليل مردم بك ٨١ ، لفاية المليح .

أما التغني بالوطن ، فقد تباريا فيه ، وتنافسا فلم يسبق أحد منهما الآخر ، فعند جبري يشكّل الشعر الوطني غرضا رئيسا ، ترجع إليه أغلب قصائده ، وكذلك الشأن في ديوان مردم فإن « الوطنية ... هي الخيط الدائم والقوي ، الذي يربط أغراضه الشعرية جميعها »[١].

غير أنّ جبري كان يأتي بمشاعره الوطنية في مقدمات قصائده غالبا ، أو يضمّنها في خلال حديثه عن بعض الوقائع ، أو عن بعض الشخْصيات ، كقوله :

مروجَ دمشق وغيطانَها * سقتكِ السحائبُ هتّانها

وهبّتْ عليك نسيم الصبا * تناغي الجنان وأغصانَها[٢]

من أبيات جعلها مقدّمة لحديثه عن ثورة العرب الكبرى ، ومما جاء عَرَضا قوله :

لنا وطن لاينبغي أن نبيعه * فما في نعيم الدهر شيء يعادله[٣]

أما مردم فإنك واجد لديه قصائد كاملة ، يتغنى فيها بوطنه ، كقصيدة (دمشق) التي قال فيها :

أدمشق ما للحسن لايعدوك * حتى خُصِصْتِ به بغير شريك

سبحان من أعطاك ، أشهد أنه * وفّى وزاد بسيبه معطيك[٤]

وله قصائد كاملة أيضا عن الغوطة وبردى ، وعن الربوة والمزّة وهما من متنزّهات دمشق ، وفيهما يقول :

حي الشآم وربعها * ذاتَ الينابع والنهور

فالربوة الغنّاء ما * أحلى بها سجع الطيور[٥]

وفي وطنياتهما تشيع ذاتية ، قوية حينا وهادئة حينا آخر ، وانظر مثلا إلى قول جبري :

أيها السائل عن أربعنا * إنما الأربع صارت دمنا

---

(١) المرجع السابق ١٠٦ .
(٢) نوح العندليب ١٨ .
(٣) المصدر السابق ٥٢ .
(٤) ديوان مردم ٤٣ .
(٥) المرجع السابق ٩٩ .

ليس في اغيانها غير فتى * واجف الاضلع يشكو الزمنا
يرسل الأدمع من اجفنه * فيسلّي بالدموع الأجفنا[١]

وهو شبيه بقول مردم في قصيدته عن دمشق :

الحبُّ بَرّح بي وأنتِ بعثتِه * اإليك اشكو الحب ام اشكوك[٢]

والذاتية عند مردم أكثر منها ظهورا عند جبري[٣].

ثم إن الوطنية عندهما جميعا ، تجاوزت الأفق الضيق - كما أسلفت - إلى الحديث عن آلام الوطن العربي كله ، فهاهو خليل مردم « يعبر للسوريين عن مشاعرهم الوطنية ... وماكانوا يطمحون إليه من الوحدة العربية واجتماع كلمة الأمة »[٤]، في مثل قوله :

فيم التقاطع والأرحام واشجة * والدار جامعة والملتقى أمم
تابى وشائج من قرباكم اشتبكت * ان يُنقض العهد والميثاق والذمم[٥]

وقوله في موضع آخر :

مصر العزيزة والشام على الولا * إلفانِ ضمهما هوى وغرام[٦]

وكذلك عبّر جبري ، بأسلوب أكثر صراحة ، وفي مواضع كثيرة ، كقوله :

فهل أرى العُرب أغصانا يلفهم * على الديار بيانُ العُرْب والرحم[٧]

وقد صاحب دعوتَهما إلى الوحدة الشاملة ، تغنٍّ بالأمجاد القديمة ، وبعثٌ لها ، كقول مردم :

رفعت أمية فيكِ أعظم دولة * كانت قواعدَها سيوفُ بنيكِ[٨]

ومثله قول جبري ، والمعنى هنا أوسع :

---

(١) نوح العندليب ١٥ .
(٢) ديوان مردم ٤٣ .
(٣) انظر : الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر ٧٩ .
(٤) الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور ٢١٦ .
(٥) ديوان مردم ١٦٦ .
(٦) المرجع السابق ٢٦١ .
(٧) نوح العندليب ٩٥ .
(٨) ديوان مردم ٤٥ .

تلـك البطولات كالأهـرام راسخةً * فاين ماطمسوا منها وماهدموا[١]

ولاشك في أن التغني بالأمجاد ، يبعث الهمم ويثير العزائمَ لإعادتها ، فهو وثيق الصلة بالشعر القومي ، الذي أجاد فيه الشاعرانِ وتميّزا ، ومما عرضا له في هذا المجال الاستعمار وماجرّ من ويلات ونكبات على البلاد ، كقول مردم في قصيدته الدالية المشهورة :

باتت دمشق على طوفان من لهب * يادين قلبي من خطب تكابده

مـوج مـن النـار لاتهدا زواخره * يُمدّه آخـر ما ارتدّ وافـده

أمسى الذي كان في جناتها بَهِجا * بمـارج مـن سعير فار واقـده[٢]

وفيها يقول واصفاً بعض الفجائع :

وربّ مكنونـة كالـدر ضَنَّ بـه * على العيون فصانته نواضـده

تخطّت النـار ليـلا وهْـي حاملة * طفلا قضى برصاص القوم والده

فما تنـاءت بـه حـتى أتيح لـه * شظيّة بان منها عنـه ساعـده

ضمّت إلى صدرها شلوا يسيل دما * كالطير هاض جناحا منه صائده[٣]

وهذه الصور التي عرضها مردم هي نفسها الصور التي جاءت في قول جبري :

هذي ضحاياكَ في الأيام آبـدة * وللضحايا على الأيام تابيـد

الطفل في المهد لم تهدأ مضاجعه * مروّع من لهيب النار مكمـود

تلفـه أمـه مابـين أضلعهـا * ومَوقد النار مِطراب وغرّيـد[٤]

غير أن مردم حَرَص على استيفاء جوانب الصورة ، التي جاءت عند جبري مختصرة في مقطع واحد .

وقد كان في شعر مردم تأجج واضطرام عند التغني بالأمجاد القومية [٥]، وعند التحريض على الثورة ضد المستعمر ، كقوله :

---

(١) نوح العندليب ٨٩ .
(٢) ديوان مردم ١٢٢ .
(٣) المرجع السابق ١٢٣.
(٤) نوح العندليب ٦٩ .
(٥) انظر : اتجاهات الأدب العربي في السنين المئة الأخيرة ١٤١ ، محمود تيمور ، مكتبة الآداب ، غير مؤرخ.

ياغيرة الله اغضبي لكتابه * إن قومه لم يبذلوا الأرواحا

يا أيها الثوار هذا يومكم * فإذا انقضى لاتدركون فلاحا[١]

وهو مانجده عند جبري أيضا ، واستمع إلى قوله :

مانامتِ الشامُ عنْ ثأرٍ تبيّنه * هيهاتَ مانومها في الثار معهود

تكاد تغلت من اكفانها رمم * لتشهد الثار ، يوم الثار مشهود[٢]

ويرى بعض الباحثين أن « في شعر مردم القومي أثرا لمزاجه الهادئ ، فهو أقرب إلى الانفعال الذاتي السلبي ، منه إلى التقريع العنيف »[٣]، وهذا حكم غير دقيق ؛ لأننا نجد في بعض قصائده ثورة عارمة ، لاهوادة فيها ، أما أثر مزاجه الهادئ ، فنجده غالبا في شعر النكبات ، حيث تسيطر الانفعالات السلبية التي لاتتجاوز البكاء ، وهذه صفة مشتركة بين الشاعرين .

وانظر مثلا فيما نظماه في معركة (ميسلون) ، تجد نقاط شبه ونقاط اختلاف ، فمن مواضع الشبه بينهما بثُّ الألم والشكوى مما وقع في هذه المعركة ، فهذا مردم يقول :

يادين قلبي من يوم ورى كبدي * وطال همي لذكراه وتَسهادي

في ميسلون من الأشجان سلسلة * نيطت باطرافها ارجاء ارواد[٥]

وما أشبه قول جبري به :

إني لأرجع بالذكرى فتؤلمني * ذكرى انطوت في مطاويها امانينا

لله دمع شقينا في سوافحه * بميسلون ولاسلوى تسلّينا

وهذه الأبيات تمثل نمطا من الانفعال السلبيّ ، غير أن الشاعرين جميعا استدركا متفائلَيْن ، فأشارا إلى أن الأمل لايموت مهما ادلهمّت الظلمات ، وكان تفاؤل جبري مشوبا بالعزة والإحساس بالكرامة :

---

(١) ديوان مردم ١٥٧ .
(٢) نوح العندليب ٧٠ .
(٣) شخصيات ٦٣ " بتصرف " .
(٤) ديوان مردم ١٢٠ .
(٥) نوح العندليب ٧٤ .

إن فاتنا النصر والأيـام دائلـة * فلم يفتنا إبـاء فـي الأبيينا[١]

أما تفاؤل مردم ، فكان أقربَ إلى ترداد حكم مأثورة يعزّي بها نفسه :

وربما عثرة ترجى إقالتهـا * وخذلة أضمرت نصرا لميعاد[٢]

وانظر بعد ذلك ، في قصيدتيهما في ذكرى الشهداء ، الذين أعدمهم جمال السفّاح ، فإنك واجد فرقا واضحا بين القصيدتين ، فبينما اكتفى جبري بترديد معانٍ عامة تصلح لتأبين كل شهيد ، كقوله :

ثوى في ظلمة الأجداث قوم * يمل غداة يوسمهم الثواء

من العرب الذين لهم نفوس * تلازمها المدائح والثناء[٣]

تجد أن مردم عمد إلى وصف ماحل بالشهداء وصفا حيّاً [٤]، كقوله :

في مثل ذا اليوم، في هذا المكان ، على * هذي الجذوع علت أرواحهم صُعُدا

طارت إلى العلا الأعلى لتدرك ما * قد فاتها نيله إذ تسكن الجسدا

لصوتها في حفاف العرش هينمة * هل تسمعون ؟ ففي اذنيّ منه صدى[٥]

ونظراً لأن قصيدة جبري ليس فيها شيء خاص بمن يبكيهم ، كما يقول هو عنها [٦]، عمد إلى حشوها ببعض الحكم المكرّرة ، ليتفادى مافيها من نقص ، كقوله :

وللأقدار فينا كل يوم * مضاء لايعادلُه مضاء[٧]

أما مردم ، فقد جاءت خاتمة قصيدته ، متلائمة مع المعاني التي سبقتها ، فبعد أن داخله اليأس مما يرى :

تقطعت كلّ أسباب الرجاء بنا * هيء لنا ربنا من أمرنا رشدا

عاد يستدرك مبيّنا أنه لن ييأس ، وأن أمله في النصر عظيم :

أستغفر الله مـن يأس يخالجنـي * فليس ييأس إلا كافر جحـدا[٨]

---

(١) المصدر السابق ٧٥ .
(٢) ديوان مردم ١٢١ .
(٣) نوح العندليب ١٢٦ .
(٤) انظر : محاضرات عن شعر الحماسة والعروبة في بلاد الشام ٦٣ .
(٥) ديوان مردم ١١٠ .
(٦) انظر : أنا والشعر ٥٢ .
(٧) نوح العندليب ١٢٦ .
(٨) ديوان مردم ١١٣ .

ومما تغنى به الشاعران ، وهَزَجَا لَهُ ، استقلال بلدهما ، وقد ترقّبا يوم الاستقلال ، وتلهّفا إليه ، وأدليا بآرائهما في قيمة الحرية ، وفي السبيل إلى نيلها ، فمردم يقول مقدّسا الاستقلال :

وطني تقدس في الورى استقلاله * شهداؤنا ودماؤهم قربانه

فتعطرت بنفوسهم أجواؤه * وتخضّبت بنجيعهم قيعانه[١]

وبيّن في مواضع كثيرة أن الدم هو ثمن الاستقلال :

ومن يك الدم لاستقلاله ثمنا * فلن يلاقي بعد الربح خسرانا[٢]

وهو المعنى نفسه الذي طرقه جبري ، في قوله :

من لم ينل بدمائه استقلاله * أعيا على مجهوده استقلاله[٣]

وهذه اللهفة العارمة إلى نيل الحرية ، والانعتاق من الاستعمار ، مفضية بلا ريب إلى إعلان الفرحة ، عن طريق الشعر عند تحقق الأمل ، وهذا مانجده في أجلى صوره عند جبري ، حيث نظم قصيدتين ، إثر جلاء فرنسا عن سورية ، يقول في أولاهما :

خلت ملوك وأرض الشام طاوية * تاج الملوك ، وتاج الشام معقود[٤]

ويقول في الأخرى :

كان العزاء لهيباً في جوانحنا * ذابت جوانحنا لولا تعزّينا

واليومَ تهنئةُ الدنيا مدويةٌ * كأنها الدهر في رأس المهنّينا[٥]

وهما من أروع شعره وأشده تأثيرا في النفوس .

أما مردم ، فلم يخص الاستقلال بعد حصوله بشيء من قصائده ، اللهم إلا قصيدة واحدة ، نظمها على هيئة نشيد ، بعدما اقتُرح عليه ذلك ، وهي في الحقيقة تتحدث عن أمجاد العرب كلهم ، وليست خاصة بهذه المناسبة ، ولامجال لموازنتها بقصيدتيْ جبري المدوّيتَيْن ، ويكفي لبيان الفرق أن تقرأ مطلع هذا النشيد :

---

(١) المرجع السابق ١١٨ .
(٢) المرجع السابق ١٤٩ .
(٣) نوح العندليب ٣٨ .
(٤) المصدر السابق ٧١ .
(٥) المصدر السابق ٧٦ .

حطمت اغلال يدي * برأس كل معتد[١]

ثم تقرأ بعده قول جبري :

قد يجمد الدمع إلا في مآقينا * ويبرد الجرح إلا في حواشينا[٢]

ليستبين لك الفرق بين الإبداع والتكلف .

ومما يدخل في الشعر السياسي ، السخرية بالمستعمرين وأذنابهم ، وربّ تلميح ساخر أشد وقعا من الصراحة ، وهذا مافطن إليه مردم ، فأكثر منه ، وأجاد فيه ، حتى جاز لي أن أعدّه من الشعراء الساخرين ، وتأمل قوله عن المستعمر البغيض :

أتى ضيفا فأصبح رب بيت * يُحكّم بالقطين وبالعيال

يعلمني الخشونة في معاشي * وينعم بالأطايب من غلالي[٣]

ثم يشير إلى معاهداتهم معه ، فيهزأ بها في قوله :

ويُلحق في كتاب العهد ذيلا * كذيل الضبّ ذي عُقَد طوال[٤]

وحين يُمِضّه واقع العرب ، وماهم فيه من هوانٍ وذلة ، تجيش نفسه بمثل هذا الشعر :

لم تُغْنِ كثرتكم عنكم كأنكم * على المزيد - ولا أرقام - أصفار

أرى الحجارة أحمى من أنوفكم * كم أرسلت شررا بالقدح أحجار[٥]

ويقول عن واقع الدول العربية التي قسمها الاستعمار :

لمَغْنَصٌ من أفاحيص القطا حرجٌ * حامت على سمته العقبان والرخم

أبقى واوسع عند الظن من دول * يحصي مساوفهنّ الشبر والقدم[٦]

وفي موضع آخر ، يسخر سخرية مرّة من أعضاء البرلمان المغلوبين على أمرهم ، فيقول :

---

(١) ديوان مردم ٢٧٤ .
(٢) نوح العندليب ٧٣ .
(٣) ديوام مردم ١٣٧ .
(٤) المرجع السابق ١٤٢ .
(٥) المرجع السابق ١٣٦ .
(٦) ديوان مردم ١٦٧ .

البرلمان ، وهل أتاك حديثه * وحديث من فيه من النُوّامِ ؟
ملك الحياء عليهمُ أبصارهم * فعيونهم بمواطئ الأقدام[١]

وهو في هذا المجال يتجاوز جبري كثيرا ، لأن هذا الأخير لم يوفّق إلى مثل هذا الأسلوب ، وتكاد لاتجد عنده إلا أبياتا قليلة ، لاتشكّل ظاهرة في شعره ، وذلك مثل قوله :

تحامى القوم أعطاف المعالي * وعاذوا بالصبوح وبالغبوق
وناموا عن مطاعنة الليالي * كأن المجد في ظل الرحيق[٢]

ومما تساوى فيه الشاعران ، الالتجاء إلى الرمز ، خوفا من بطش المستعمرين ، فلمردم قصيدة في رثاء حاكم كورك[٣] ، « يمجّد فيها فكرة الموت في سبيل الوطن ، وكأنه يرسم الطريق لأهل وطنه لتحطيم الأغلال »[٤] متخذاً من هذا الرجل رمزا لأبناء وطنه ، ومما قال فيها :

كان حياته إصر عليه * فخفّف عنه عند الموت إصرا
فيالك سكرةً غشيته لكن * لقد كشفت عن الأقوام ضرا[٥]

ولجبري كذلك عدة قصائد ، تنحو ذلك المنحى ، مثل قصيدة (أغنية المغلول) وقصيدة (مناجاة الطير)[٦].

٣ - في الشعر الاجتماعي :

برز خليل مردم في الشعر الاجتماعي ، أكثر من شفيق جبري ، وجاء في ديوانه أكثر من ثلاثين قصيدة تعدّ من هذا الباب ، وأول ملامح تميّزه عن جبري أنه

---

(١) المرجع السابق ١٠٩ .
(٢) نوح العندليب ٥٨ .
(٣) هو الذي أضرب عن الطعام حتى مات احتجاجا على التعسف البريطاني. (نقلا عن ديوان مردم ١٥٩).
(٤) محاضرات عن شعر الحماسة والعروبة في بلاد الشام ٨٩ " بتصرف " .
وتعبيره بجملة (الموت في سبيل الوطن) أثر من آثار القومية الطائفية ، التي تمجّد التراب ، وتقدّس الوطن تقديسا يتجاوز الحد ، ولاشك في أن الشهادة الحقيقية هي الموت في سبيل الله .
(٥) ديوان مردم ١٦٠ .
(٦) راجع مبحث الشعر الوطني والسياسي في الفصل الثاني من هذا البحث .

خص هذا اللون بقصائد كاملة مثل (الولد الأعمى)[١]، و (اليتيم الجائع)[٢]، و (شهيدة الطوى)[٣] ، بينما نجد أغلب شعر جبري الاجتماعي ، يأتي عرضا في أثناء القصائد .

والأمر الآخر أنّ ديوان مردم ، ضمّ قصائد كثيرة ، تدخل تحت اسم (الإخوانيات) ، وهي نمط من الشعر الاجتماعي ، خلا ديوان جبري منه ، سوى قصيدة واحدة .

والأمر الثالث أن مردم ، تعرض في بعض شعره الاجتماعي لوصف مجالس اللهو ، والرقص ، ومايتبع ذلك من تهتك ومعاقرة للخمر ، كقوله :

كل إلفين انضوى شملهما * أقبلا فاعتنقا أيّ اعتناقْ
لو صببت الماء ما بينهما * لم يكد يخلص من فرط اعتلاق[٤]

وقوله أيضا في قصيدة (سكران وسكرى) :

وهما برج اشتياق في سعير * لشميم الخلد في ذاك السرير
من رأى الزهرة في عريتها * والذي تهوى على عهد وثير
أسلم المصباح جفنا للكرى * وغفا بغم شهيق وزفير
ودّ كل منهما لو ظل في * نومه هذا إلى يوم النشور[٥]

وقد زعم بعضهم أن الشاعر لم يَصِفْ مجالس الشراب ، « إلا لطلب المغفرة على مافرط من زلات »[٦] ، وهذا اعتذار غاية في التهافت ، ويظهر أنه اعتمد على قول الشاعر في آخر هذه القصيدة :

فاغفر اللهم زلات الصبي * وتقبّل توبة منه نصوحا[٧]

---

(١) ديوان مردم ٢٦٧ .
(٢) المرجع السابق ٢٨٠ .
(٣) المرجع السابق ٢٧٧ .
(٤) ديوان مردم ٢١ .
(٥) المرجع السابق ٣٤ .
(٦) مقدمة جميل صليبا لديوان مردم ، ص ٥ " بتصرف " .
(٧) ديوان مردم ٣٤ .

وتلك الصراحة في الوصف عند مردم ، وذلك الشغف بتتبّع كل دقيقة وجليلة مما يقع في تلك المجالس ، أمر نفر عنه ذوق جبري كل النفار ، فليس في ديوانه منه شيء .

ومن القضايا الاجتماعية التي جلّى فيها مردم ، وصف مظاهر البؤس ، كما في قصيدة (اليتيم الجائع) ، ومنها :

طفل بجوف الليل يبكي عاريا * نال الضنى من جسمه ما نالا[1]

أو كما في قصيدة (شهيدة الطوى) ، وهي المرأة العفيفة ، التي ماتت من الجوع ، ولم تُهدِرْ عفّتَها ، وفيها يقول على لسان هذه المرأة :

أأهرق ماء وجهي في سؤال * وما في الحي من رجل رشيد

أم أهتك عفة بسبيل قوت * إذا إنسي لغي غيّ بعيد[2]

أما جبري ، فكانت تجليته فيما يتعلق بالمرأة ، بتعليمها ومايقع عليها من ظلم ، ومن ذلك قوله :

لو علموك - أضاء الله ظلمتهم - * لبات في هضبة العلياء مثواك

لايسلم الشرق من خطب ألم به * إلا إذا هذّبت فيه سجاياك[3]

وهذا المعنى ورد عند مردم ، غير أن تفضيل جبري جاء من قِبَل أنه ألحّ على هذا المعنى وردّده مرارا ، ومما قال مردم :

سرّ الشعوب الفتاة فهي بما * توليه نجري مع خلقها شَرَعا

من يصطنعْها بالعلم والخلق الظا * هر يعلمْ إحسان ما اصطنعا[4]

ومن القضايا التي عالجها جبري ، عنوسة الفتاة ، فقد وصف حالها وصفا جيدا ، وإن لم يوفق إلى علاج هذه المشكلة [5].

ومن المسائل التي جرى فيها الشاعران على حال واحدة ، الالتفات إلى بعض الأخلاق المنحرفة ، والتحذير منها ، واستمع إلى قول مردم :

---

(١) المرجع السابق ٢٨٠ .
(٢) المرجع السابق ٢٧٧ .
(٣) نوح العندليب ١١٢ و ١١٣ .
(٤) ديوان مردم ٢٩٤ .
(٥) راجع مبحث الشعر الاجتماعي عنده ، في الفصل الثاني .

والناس سالم يواسوا بعضهم فهمُ * كالسائمات وإن سميتهم بشرا

إن كان قلبك لم تعطفه عاطفة * على المساكين ، فاستبدل به حجرا[١]

تجدْهُ ينزع هو وجبري عن منزع واحد ، لأنه يحدب على الضعفاء ، ويتوجع لآلامهم ، وتأمل قول جبري :

يالهفتاه على الضعيـ * ـف ومن يحنّ على الضعيف ؟

قلّ المضاجع لايُمتّـ * ـع بالتليد ولا الطريف[٢]

وماأشد نقمة الشاعرين على مافي المجتمع من شرور وانحرافات ، شأن كل مجتمع ! وإنهما ليستشرفان اليوم الذي لايجدان فيه إلا الصفاء والمودة ، فينعتقان من ربقة المجتمع الضيق ، إلى معالجة مشاكل الإنسان مهما كان جنسه ولونه ، فيقول جبري مشككاً في القصد من غزو الفضاء ، وذاهباً إلى أن الهدف منه أن يسيطر الأقوياء على الضعفاء ، ويسخّروهم لتحقيق مآربهم ، يقول :

غزو الكواكب كشف العلم ظاهره * والله يعلم ما اخفوا وماكتموا[٣]

غير أن مردم – في هذا الشعر الإنساني – كان أسبق من جبري وأبرع في عرض بعض القضايا ، بل إن هذا اللون كان غالبا في ديوانه [٤]، فقصيدته في وصف حفيده ، تتجاوز الحدود ، وتخاطب مشاعر كل إنسان ، وما أجمل قوله :

وإن رآني مقبلا * رفرف زنديه ومدْ

ولم يزل مزقزقا * كأنه طير غردْ

ضممتُه وضمني * حتى التقى فم وخدْ[٥]

وقد دعته نزعته الإنسانية ، إلى ترجمة قصيدة (الولد الأعمى) ، فأضفى عليها من رقّة مشاعره ، وحُسْن صياغته ، روحا جديدة ، ومنها :

ماذا الذي تدعوه نورا * أنا ماسعدت به بصيرا

---

(١) ديوان مردم ٢٣٧ .

(٢) نوح العندليب ٣٢٠ .

(٣) المصدر السابق ٣٤٣ .

(٤) انظر : خليل مردم بك ١١٨ – ١٢٠ .

(٥) ديوان مردم ٩٢ .

بل كيف ينعم مبصر * هل تُخبر الولد الضريرا ؟[١]

ومن المعاني التي اتفق فيها الشاعران - في مجال الشعر الاجتماعي - التحذير من الدعوات المشبوهة لتجديد الشعر ، وكانا شديدي الوطأة على من دعوا إليها ، كقول جبري :

خفت العندليب والسجع في الرو * ض ودوّى من الغراب نعابُه[٢]

وقول مردم :

واعمى لقد ضل القوافي منيرة * ولم ير إلا كل قافية عورا

يصيح ويدعو للجديد وحزبه * وليس بدار منه قلاّ ولاكثُرا[٣]

ومهما يكن من أمر ، فإن الشاعرين قد استبقا في الأغراض الشعرية السابقة ، من وجدانية ووطنية واجتماعية ، ولكلٍّ منهما تميّز وحضور ، على اختلاف في ذلك ، كما سبق إيضاحه .

ثانياً : الموازنة الفنيّة :

ا - المضمون :

أ - العاطفة :

لاشك في أن صدقَ عاطفة الشاعر وقوتَها ، ناتج عن حالته النفسية ، التي نظم في أثنائها قصيدته ، ولذلك نجد قصائد الشعراء تتفاوت في صدق العواطف وقوتها .

وحين ننعم النظر في ديواني الشاعرين ، نجد العاطفة تسمو أحيانا ، حتى تنتج أدبا جديرا بالخلود ،وتهبط أحيانا حتى نكاد نقرأ نظما باهتا لاروح فيه .

فأما قصائدهما الوطنية ، فأغلبها قوي العاطفة صادقها ، وماذاك إلا لأن حالة وطنهما الأليمة ، إبان الاستعمار ، وماتلاه من فتن واضطرابات ، زادت العواطف اتّقادا ، فصرت تقرأ لمردم في رثاء بعض رجال العرب :

---

(١) المرجع السابق ٢٦٧ .
(٢) نوح العندليب ٢٨٤ .
(٣) ديوان مردم ٤٨ .

كانها الدوح إن مال النسيم به * ثواكل نشرت اشعارها كمدا

كانها الطل والأوراق ترسله * دمع تحدّر من آماقها بددا

ناحت على بردى الأطيار فانفجرت * بعد النضوب عيون الدمع من بردى

فلو تراهم على الأعواد ماثلة * اجسامهم لفقدت الصبر والجلدا[1]

وتزداد عاطفته احتداما ، حين يوازن بين حال المصلوب في شرف ، وبين حال الملك المهيب ، فيقول :

اقسمتُ بالله ، للمصلوب في شرف * امسى على الجذع مثل الشلو منفردا

أجلُّ في النفس من ملك نحفّ به * جلالة الملك إن فوق السرير بدا[2]

ومما جاء من شعر جبري ، صادق العاطفة ، متأجج المشاعر ، قوله في الجلاء :

قل للذين اذاقونا بليتهم * حتى نغضنا بلاء كل يؤذينا

إذا ذكرتُ عهودا في ظلالكمُ * حسبتُ حمر المنايا تغتلي فينا[3]

وكذلك تجد أن معظم وجدانياتهما ، ذات عواطف قوية وصادقة ، إلا أن أشعارهما في الغزل خارجة عن هذا الحكم ، فهي متكلفة ، وحسبك أن تقرأ لمردم :

طال ليلي وتولاني السهرْ * وفؤادي كاد شوقا ينفطر

لم يكن مثليَ في صرعى الهوى * ما ابن حُجر ماجميل ماعمر؟[4]

لترى المعاني المكرّرة ، والألفاظ التي كاد يدركها البلى من كثرة ماردّدها الشعراء ، فتدرك أن الشاعر تكلف الغزل ، ثم انظر في قوله :

اصغت لتسمع شكوتي وتظلمي * لما رأت دمعي جرى كالعندم

واستنطقت قانونها فاجابها * في حل قتل المستهام المغرم

سلْ من اباح لها دمي قانونها * هل قال قانون[5] بإهراق الدم[6]

---

(١) ديوان مردم ١١١ .
(٢) المرجع السابق ١١٢ .
(٣) نوح العندليب ٧٥ .
(٤) ديوان مردم ١٩٧ .
(٥) القانون الأولى : آلة موسيقية ، والثانية : الأحكام المرعية .
(٦) ديوان مردم ١٩٨ .

تلحظُ أنه مال إلى هذا الجناس ، ليقوّي العاطفة ، أو ليشغل القارئ به . وهو مافعله جبري في قوله :

وميض البرق من ثغرك * فديت البرق والثغرا
وهذا الشعر من سحرك * فمن علّمك السحرا
يحار الدر في نحرك * فضحت الدر والنحرا
فما أسماك في طهرك * ملكتِ العَفّ والطهرا[١]

وحيثما وجدت الشاعر يتلاعب بالألفاظ ، ويُكثر من أنواع البديع ، فاحكم على عاطفته بالتكلف .

وأغلب مراثي مردم ذات عاطفة خافتة ، أو متصنّعة ، لكونها أشعار مناسبات ، تدعو إليها المجاملة ، فبعضها كتب ليوضع على قبر المرثيّ[٢] ، وبعضها لمواساة قريب[٣] ، بل إن رثاءه لأمه لم يُنظم إلا من أجل تأريخ وفاتها[٤] .

وقد كاد جبري يقع فيما وقع فيه مردم ، لولا أن تداركه ذوقه وحسه الفنيّ ، فصار يصرف مراثيه التي تمليها المناسبات الطارئة إلى بثّ المشاعر الوطنية ، واستلهام التاريخ ، كما فعل في رثاء الملك فيصل[٥] ، ورثاء حافظ[٦] .

وتأمّل – مثلا – الفرق بين قصيدتي الشاعرين في رثاء الملك فيصل ، تجدْ قصيدة مردم تقليدية ذات معانٍ مردّدة ، وعاطفة مصنوعة ، كقوله :

وشبّ الثورة الأولى فأذكى * طريقتها إذا طفح الإناء
بصير بالسياسة ذو وفاء * وهيهات السياسة والوفاء[٧]

بينما تجد قوة العاطفة وتدفقها في قصيدة جبري ، التي كانت تأريخا لحياة الملك فيصل، ومنها قوله :

---

(١) نوح العندليب ١٠٧ .
(٢) ديوان مردم ، انظر : ٣٨٥ .
(٣) المرجع السابق ، انظر : ٣٨٢ مثلا .
(٤) ديوان مردم ٣٧١ .
(٥) نوح العندليب ١٦٥ .
(٦) المصدر السابق ١٧١ .
(٧) ديوان مردم ٣٥٩ و ٣٦٠ .

مابكت وحدها جفونك فالشّر * قٌ من الجرح في لظى نيرانه
حُرم الشرق لذة الملك دهـرا * كان فيـه للدهر من عبدانه
فاذقه حلاوة الملك قـد ذا * ق الأمّرين من أذى حرمانه[١]

وإذا أردت القصيدة التي جمعت صدق العاطفة ، وقوتها ، وثباتها ، ونُبلها ، في ديوان مردم ، فإنها قصيدته في رثاء ولده " الهيثم "[٢]، حيث كانت عصارة فؤاده الحزين ، ولاعجب في ذلك .

ومن الملحوظ لدى الشاعرين كليهما ، عدم ثبات العاطفة في كل قصائدهما على مستوى واحد من التأثير ، وقد مرّ بالقارئ الإشارة إلى خفوت عاطفة جبري في آخر قصيدته عن الملك فيصل[٣]، وهذا مثال يمكن موازنته بقصيدة مردم ، التي خاطب بها فيصلا ، وفيها يعاتبه عتابا عنيفا ، ومما جاء فيها ، ضاجّاً بالعاطفة المتدفقة قوله :

إذا لم نثرها يلفح الوجهَ حرُّهـا * ويغرق من أهوالها البطل الكمي
فلسنا الألى تابى هوانا نفوسنا * ولسنا لقيس أو لقحطان ننتمـي
وماهي إلا صرخة ثم اختفـا * تطير لها الأبطال من كل مجثم[٤]

غير أنه في خاتمتها رقّ ولان ، فقال :

حنانيك إن زل اللسان ببعض ما * يخالف آداب المقـام المعظّم
فما ذاك إلا نغثة قذفت بها * لواعـج هـم في فؤاد مكلّم[٥]

وبعد : فقد كان ديوانا هذين الشاعرين كتلة من العواطف ، التي أورثتها حال سياسية مفكّكة ، وحوادث دهر مفجعة ، ونفسان رقيقتان .

---

(١) نوح العندليب ١٧٠ .
(٢) ديوان مردم ٣٦٧ .
(٣) راجع مبحث الخصائص الفنية في الفصل الثاني من البحث .
(٤) ديوان مردم ١٥٢ .
(٥) المرجع السابق ١٥٣ .

ب - المعانـــي :

دارت معاني الشاعرين حول الوطنية والوجدانيات من غزل ورثاء ، ومعالجة بعض قضايا المجتمع ، وتلك هي المعاني العامة التي تنتظم أشعارهما ، أما المعاني الخاصة عند كل منهما ، فإن بينها تشابها من عدة نواحٍ .

وبدءاً فإن مردماً شاعر معنى ، ولعل معانيه كانت أكثر من موسيقاه ، مع أنه حرص على الجمع بين اللفظ والمعنى [١]، وجبري بخلافه ، لكونه شاعر لفظ ، وقد سبق الإلماح إلى هذا[٢].

إن نواحي الشبه في معانيهما ، تتضح فيما يلي :

١ - الاقتباس من القرآن الكريم :

ولاغرو ، فإن للقرآن الكريم أثرا ، ولألفاظه نورا ، ولايخلو ديوان لشاعر مسلم مـن أثر له ، في المعنى أو في اللفظ ، بل إن الشعراء ليسعون إلى تضمين بعض جمله ، والاستفادة من تعبيراته وتراكيبه .

فمن ذلك قول مردم :

أوحشته ظلمات ، بعضها * فوق بعض حجبت نجم السما

تقبض الأبصارَ حتى لم يكد * رافع إصبعَه فيها يرى[٣]

وهو مأخوذ من قوله تعالى : ﴿ظلمات بعضها فوق بعض ، إذا أخرج يده لم يكد يراها﴾[٤].

وأنت راءٍ أنه اقتبس المعنى واللفظ معا ، وشبيه به قوله أيضا :

قم فابغني سلّما ابغي النجاة به * إلى السموات أو تحت الثرى سربا[٥]

أخذه من قوله تعالى : ﴿فإن استطعت أن تبتغي نفقا في الأرض أو سلّما في السماء﴾[٦].

---

(١) انظر : شاعر الشام خليل مردم ٢٦٨ .
(٢) راجع مبحث الخصائص الفنية في الفصل الثاني .
(٣) ديوان مردم ٥٠ .
(٤) سورة النور ، الآية : ٤٠ .
(٥) ديوان مردم ٢٤٣ .
(٦) سورة الأنعام ، الآية : ٣٥ .

ولجبري أيضا اقتباسات لطاف من القرآن الكريم[١] ، غير أن مردماً فاقه فيها من حيث الكثرة وحسن الصوغ .

٢ - الاقتباس من التراث :

ومردّ ذلك ثقافتهما الواسعة فيه ، وتعمّقُهما من بعدُ في بحثه ودراسته ، غير أن أثر التراث في شعر مردم أكبر ، والسر في ذلك أن جبري كان يؤرّقه السعي إلى التجديد في أخيلة الشعر وأسلوبه ، ولذلك قلّت عنده - في آخر حياته - آثار القدماء ، وطمح إلى أن يخلو شعره من كل ماينم عن تقليد أو اتباع ، أما مردم فلم يبال أن يقال عنه مجدّد أو مقلّد ، فصارت روح القديم ومعانيه تسيطر على شعره في الغالب .

ومن المعاني المقتبسة في شعر جبري ، قوله :

ومن لم يوطّن في المصائب نفسه * على حملها أخنت عليه مصائبه[٢]

وهو معنى قديم متعاور ، أجود ماتقرأه في قول الشريف الرضي :

ومن لم يوطّن للصغير من الأذى * توقّع أن يلقى أجل وأعظما[٣]

ومما اقتبسه مردم قوله :

ساحطٌ من قدرنا ظلمُ الزمان لنا * هل عيبت الشمسُ ان الشمسَ تنكسف[٤]

أظنه نظر فيه إلي قول الشاعر :

وفي السماء نجوم لاعداد لها * وليس يكسف إلا الشمس والقمر

أما قوله :

لاهم دمعي من طول البكا نفدا * فهب لعيني ما ابكي به الشهدا[٥]

وقوله :

أمدّه الدمع حتى غاض جانده * فمن بأدمع عينيه يرافده[٦]

---

(١) راجع مبحث الخصائص الفنية في الفصل الثاني .
(٢) نوح العندليب ٣٥ .
(٣) ديوان الشريف الرضي ٢/٣٣٠ .
(٤) ديوان مردم ١١٥ .
(٥) المرجع السابق ١١٠ .
(٦) المرجع السابق ١٢٢ .

فإنه ردّد فيهما معنى قديما ، تجده في قول الشاعر :

نزف البكاء دموع عينك فاستعر * عينا يعينك دمعها المدرارُ

وتأمل في قوله :

لكنّ بعض الذي بي من محبتها * العين في جنة والقلب في سقر[١]

تجد المعنى أوضح وأنصع في قول أبي الحسن التهامي[٢]:

نظروا صنيع الله بي ، فعيونهم * في جنة ، وقلوبهم في نار

أما المعنى الذي تضمّنه قوله :

واعظم مالاقيت في الحب انني * إذا ماالتقينا لااطيق كلاما[٣]

فمأخوذ من قول المجنون[٤] :

فما هو إلا أن أراها فجاءة * فأبهت حتى ما أكاد أجيب[٥]

كما استفاد الشاعران من أمثال العامة وتراثهم ، تجد ذلك في قول جبري :

أكلتك الذئاب إن لم تكن في * ثورة العرب والعروبة ذئبا[٦]

حيث ضمّن المثل القائل : (إن لم تكن ذئبا أكلتك الذئاب) .

وتجده كذلك في قوله مردم :

ليس أحب من ولد * للأب إلا ابن الولد[٧]

وهو نظمٌ للمثل العامي : (ما أعز من الولد إلا ولد الولد) .

٣- الإشارات التاريخية :

وهي من دلائل ثقافة الشاعر ، ومعرفته بالتاريخ ، وفي ديواني الشاعرين نماذج كثيرة منها ، وقد يكون الداعي إليها التشبيه المحض ، كقول مردم :

---

(١) ديوان مردم ١٩٩ .

(٢) أبو الحسن التهامي (؟ - ٤١٦ هـ) شاعر مشهور ، من أهل تهامة ، قُتل مسجونا ، وله ديوان مطبوع . (الأعلام ٤/٣٢٧) .

(٣) ديوان مردم ٢١٨ .

(٤) مجنون ليلى (؟ - ٦٨ هـ) قيس بن الملوّح ، شاعر غَزِل ، من المتيمّين من أهل نجد ، نسجت الأساطير حول قصته مع ليلى ، وجمع بعض شعره . (الأعلام ٥/٢٠٨) .

(٥) ديوان مجنون ليلى ٤٩ ، تحقيق عبدالستار فراج ، مكتبة مصر ١٩٧٩م .

(٦) نوح العندليب ٢١٢ .

(٧) ديوان مردم ٩٣ .

حكى النجاشيّ مختالا يسير على * بساط كسرى إلى كرسيّ بهرام[١]

وقد تكون اعتزازاً بذلك التاريخ ، كقول جبري :

لولا سيوف بني حمدان في حلب * ما امتدّ للعُرْب تاريخ ولاعلم[٢]

وربما كانت تباكيا عليه ، كقول جبري أيضا :

مانسينا تغلبا لما سقى * دمها البدو وروّى الحضرا[٣]

وقد يكون تضمينا لقصص سارت مسير الأمثال ، كقول مردم :

من كابن سامةَ إيثارا لصاحبه * يعالج الموت في الإيثار مصطبرا[٤]

ولو شئت استقصاء تلك الإشارات إلى وقائع التاريخ وأحداثه ، لرأيت السبق فيه من نصيب مردم .

٤ - الوضـــوح :

يتفق الشاعران في نزوعهما إلى الوضوح ، والبعد عن الغموض ، وذلك أثر من آثار نظرتهما إلى الشعر ، حيث يريان أن للشاعر وظيفة ، لاينبغي له أن يميل عنها ، فهذا جبري يقول :

هكذا الشاعر في الحانه * ينفض الأكفان عما غبرا[٥]

ويقول مردم :

إذا لم ينبه شاعر القوم قومه * فذاك بان يشقى به قومه أحرى[٦]

وعِظَم التبعة الملقاة على الشاعر ، ناتجة عن قيمة الشعر نفسه ، وأثره في الأمم ، فمردم يرى الشعر وحيا ، ويقول واصفا الشاعر :

هبط الوحي عليهِ من سموات الخيال في الظلام
وأضاءت جانبيهِ ربة السحر الحلال في الكلام
خرّ يبكي وله لما تجلّت صعقات[٧]

---

(١) المرجع السابق ٥٨ .
(٢) نوح العندليب ٨٩ .
(٣) المصدر السابق ٢٤٧ .
(٤) ديوان مردم ٢٣٨ .
(٥) نوح العندليب ٢٤٤ .
(٦) ديوان مردم ٤٩ .
(٧) المرجع السابق ٣٧ .

وعلى غراره يقول جبري :

إنما الشعر شفاء وهدى * صاغه الله عزاءً للورى[١]

تلك أهم السمات المعنوية المشتركة بينهما ، كما أنك واجد عند كليهما بعض التجاوزات ، كقول مردم في معارضة حكم الإعدام للقاتل :

وقاتل النفس لو صحت عدالتـــه * كمن يداوي بفكِّ المقلة الرمدا

وليس يملك فكُّ الروح عن جســـد * إلا الـذي هو ضمَّ الروحَ والجسدا

هب القتيلَ مسيئا فالقصاصُ لـه * فما جـزاء الـذي قتـلا عليه عدا

إن كان من جنسه فالقتلُ يلزم من * فـوق البسيطة لايبقي إذن أحدا[٢]

وهذا كله ادعاء وتفلسف ؛ يدلّ على سطحية وهشاشة تفكير ، ولايُلتفت إليه .

وثمة معنى اجتمع الشاعران عليه ، وردّداه مرارا ، وهو مايمثّل نظرتهما إلى الدين ، فهما يقدّمان وحدة الوطن عليه،فهذا مردم يصرّح بقوله :

قالوا وفي الدين بون دون وحدتنـا * إلى متى باسم هذا الدين نقتسم؟[٣]

وهذا جبري يصرّ على هذا المعنى ، حين يقول :

الدين لله ، والأوطان كعبتنا * فما نزلزل بالأديان أوطانا[٤]

وهذه المعاني المنحرفة ، من آثار الصراعات السياسية والفكرية ، التي عمّت بلاد المسلمين في القرون الأخيرة .

ثم إن مردما لم يكفه ماقال من قبل ، حتى جاء يعلن أنه دان بالإسلام ؛ لأنه دين العرب ، وذلك في قوله :

نبذ الأديانَ ، يعتدّ بها كلُّ غبـــي

وجفا الإسلامَ لو لم يك دينَ العرب

فهمُ لو عبدوا الأوثان أمسى وثني[٥]

---

(١) نوح العندليب ٢٤٢ .
(٢) ديوان مردم ١١٢ .
(٣) المرجع السابق ١٦٧ .
(٤) نوح العندليب ٥٠ .
(٥) ديوان مردم ٤١ .

وهذا بلا مرية خروج ، وتجاوز مقيت ، وإنها لقومية طائفية نتنة ، ماكان أحراه أن يسمو عنها ! وليست الفسحة المعطاة للشاعر بشافعة له في هذا .

ومن شطحات الشاعريْن رفعهما الوطنَ ، وشهداءَهُ إلى درجة المعبود ، وهذه وثنية في التصور ، تأباها الفِطَر السليمة ، وانظر مثلا في قول مردم يخاطب دمشق :

تهوي قلوبهمُ إليكِ صبابة * لولا مشاعرُ مكةٍ حجوكِ

لولا حمى البيت الحرام وشطره * عند الصلاة وجوههم ولوكِ[١]

وشبيه به قول جبري :

من كل ناحية حشود زحزحت * في ظل معبود القلوب حشودا[٢]

ومما اتفق الشاعران عليه من المعاني ، تمجيد القوة ، وبيان أن الحق لاسبيل إليه إلا بالقوة وحدها ، فمردم يقول :

فإن جادلت في دعواك فاجعل * بعزمك لابمنطقك الدليلا

همُ هابوا القوي وقدّروه * وما اعتبروا الضعيف أو الكسولا[٣]

ويتابعه جبري ، فيهوّن من شأن الكلام ، ويرى أن الفصل للفعل :

الفعل أبلغ منطقا * من كل قافية شرود[٤]

ومما تجد عند الشاعرين ، الإتيان بجمل وألفاظ تكون حشوا حينا ، وتكون استيفاء للمعنى حينا ، فمن الحشو في شعر مردم قوله :

ألا هل أتى شبه الجزيرة نعيُهم * ومن كان قيسيًا بها ويمانيا[٥]

فالعَجُزُ هنا زائد لاحاجة له ، واطّراحه أولى .

وهذا الشطر الزائد يشبه هذا العَجُزَ في بيت جبري :

في الأرض منتدح لمن كره الأذى * بين الربى ومسارح الآرام[٦]

---

(١) المرجع السابق ٤٥ .
(٢) نوح العندليب ١٥٣ .
(٣) ديوان مردم ١٣٠ .
(٤) نوح العندليب ٦٥ .
(٥) ديوان مردم ٢٨٨ .
(٦) نوح العندليب ٣٠ .

ومما جاء من الألفاظ مستوفيا المعنى ، قول مردم :

حيـــاة المـرء كالسَّفْر * وفيهـا الحبُّ كالشَّعر

فكيف - وأنت شاعرة - * بهذا الشعر لم تدري

فإن هذه الجملة المعترضة ، وقعت من المعنى موقعا حسنا ، فزادته دقة ولطفا ، ومثلها الجملة المعترضة في قوله أيضا :

- استغفر الله - لو أعطِيتُ خَلْقَهمُ

لكان يصرفني عن خلقهم أنَـف[٢]

ومن الاعتراض اللطيف في شعر جبري ، قوله :

لو علَموكِ - أضاء الله ظلمتهم -

لبات في هضبة العلياء مثواك[٣]

ثم إن حرص مردم على المعاني ، جعله يستكثر منها ، فأوقعه ذلك في الحشو والتكرار واستلهام معاني الأقدمين ، وفي السماجة أحيانا ، كقوله يصف رجلا :

أحفى شواربَه ولحيتَـه معـا * أرأيت رأس التيس ساعة يُسمط

ومشى العِضَة حاسرا عن رأسه * فكأنه إذ ذاك قرد أشمـط[٤]

وقد يزلّ به عن الدقة في المعنى ، كقوله :

فارض زهـــت * بالشمـوس الوضاءْ

سماء لعمـرك * أو كالسمـــاء[٥]

فقد جاء السبك هنا مقلوبا ، وكان الأصل أن يقول : هم كالسماء ، بل هم سماء[٦] ، وهذان البيتان من النشيد الوطني لسورية ، الذي قال فيه الطنطاوي : إن مردماً لم يوفق فيه أبدا ، وحكم عليه بالضعف[٧].

---

(١) ديوان مردم ١٨٤ .
(٢) المرجع السابق ١١٥ .
(٣) نوح العندليب ١١٢ .
(٤) ديوان مردم ٩٤ .
(٥) المرجع السابق ٢٦٩ .
(٦) انظر : صور وخواطر ٩١ ، علي الطنطاوي ، مكتبة المنارة ، جدة ، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ .
(٧) انظر : فكر ومباحث ١٤٧ .

بيد أن ذلك الحرص على المعنى عند مردم ، مكّنه من الوقوع على معان جديدة ، لم يتيسّر لجبري مثلها ، لكونه اهتم باللفظ أكثر ، فمن ذلك قوله يصف الأذان :

وأذانٍ رُفِـعَ الصـوتُ بـه * حسنِ الترجيع موصولِ الصدى
كان بشرى مولد الفجر كما * كان تكبيرا على ميت الدجى[١]

وأجمل منه قوله يصف الذبيحة لما برز لسانها :

تُحاول إذ ذاقته بصقَ لسانها * لـوأن لسانـا للمرارة يُبصـق
فعضّت عليه حين ألهما الردى * لتقطعـه من كُرْه ماتتذوّق[٢]

وقوله كذلك من أرجوزة :

ياعجبا لطيـب ريـح الـترب * إذا تندّى بدمـوع السحـب
أكان مـن تحيـة الغمـام * طيبـةً إلى التراب الطامي
أم تلك أنفاس الثرى ذكيـة * تشكـر لهـا ردّت التحيـة[٣]

٢ - الشكـــل :

سعى الشاعران إلى التجديد في الشكل ، وأعانهما على ذلك الاطلاع في آداب الغرب ، والتبحّر في آداب العرب ، فجعلهما ذلك يقفان موقفا وسطا من قضية التجديد ، والصراع بين القديم والحديث ، فمذهبهما في هذا المجال هو ماشرحه جبري بقوله : « إني من المتشددين في الحرص على أوضاع أدبنا ، والاحتفاظ بمذاهبه ، إلا أن هذا التشدّد لايمنعنا من اقتباس مايزيد في رونق لغتنا وأدبنا »[٤].

وذلك الموقف هو مايمثّله أيضا تأسيس مردم للرابطة الأدبية - مع رهط من الأدباء فيهم جبري - وحواره الإيجابي مع أدباء الرابطة القلمية في المهجر[٥].

---

(١) ديوان مردم ٥٠ .
(٢) المرجع السابق ٨٤ .
(٣) المرجع السابق ٩٠ .
(٤) من مقال (مواقف محمودة لشاعر الشام) بقلم عبدالفتاح المصري ، ص ٧٢ ، مجلة الثقافة ، العدد الخاص .
(٥) انظر : فنون الأدب المعاصر في سورية ٤١٧ .

ولكن ، هل وفّق الشاعران إلى التجديد فعلا ؟ هذا سؤال تظهر إجابته من خلال الفقرات القادمة ، غير أن الحكم المبدئي هو أن نجاح جبري في هذا المجال كان أكبر من نجاح صاحبه [١]، لأن هذا الأخير اكتفى من التجديد بتنويع القوافي في بعض قصائده ، واستلهام بعض المعاني الجديدة ، أما جبري ، فقد استطاع تحقيق الوحدة العضوية في بعض قصائده ، وتمكّن من تجاوز التعبيرات التقليدية ، ووفّق إلى نمط جديد من المعارضات ، مرّت الإشارة إليه ، ولعل أول ملامح التجديد عند جبري ، عدوله عن طريقة القدماء في تسمية الديوان ، فقد كانوا يسمّونه باسم صاحبه ، وهو ماوقع لمردم ، أما جبري فقد اتبع نهج المحدثين ، فجعل لديوانه عنوانا .

بنـــاء القصيـــدة :

مرّ بالقارئ أن نَفَس جبري الشعري متوسط ، لاهو بالطويل ولا بالقصير ، وأنّ أطولَ قصائده بلغت اثنين وتسعين بيتا ، وهذه السمة توشك أن تجدها في ديوان مردم ، فأغلب قصائده مابين الثلاثين والأربعين بيتا ، ونظراً لكون ديوانه حوى أكثر شعره تجد عنده البيتين والثلاثة ، وتجد عنده أيضا مايتجاوز السبعين .

أما مطالع القصائد ، فقد كان احتفاء جبري بها أكثر ، وحرصه على تجويدها واضح من خلال براعة الاستهلال في كثير منها .

ويغلب على مطالع جبري الأسلوب الإنشائي ، مثل قوله :

نبكي على الصدق ام نبكي من الكـــذب * فكم زهر بآيات من العجـب ؟[٢]

وقوله :

أحمرة الفجر بين النخـل مايَقِدُ * ام وجهك الطلق يابغداد منفـرد ؟[٣]

ومن المطالع التي عمد فيها إلى الأسلوب الخبري ، قوله :

الربع ربعـــي والبطـاح بطاحـــي * فإذا بكيت فقد بكيت جوادي[٤]

---

(١) راجع شاعر الشام خليل مردم ٦٣ .
(٢) نوح العندليب ٣٣٥ .
(٣) المصدر السابق ٢٧٠ .
(٤) المصدر السابق ٢٩٥ .

أما مطالع مردم ، فهي على الضد من مطالع جبري ، فالغالب عليها أسلوب الخبر ، كقوله :

مقلةٌ عَبْرى ودمعٌ يكف * وهوى نامٍ وقلبٌ يجف[١]

وقوله :

مطوّقة على فنن * آثار هتافها شجني[٢]

وقد تجد لديه بعض المطالع ذات أسلوب إنشائي ، كقوله :

عاطيتني السحر أم صرفا من الراح * للسحر عيناك أم للسكر ياصاح؟[٣]

والتصريع غالب على مطالعهما جميعا ، وهو يدل على تأثّر بالشعر القديم .

أما مقدمات القصائد التي لاصلة لها بالغرض الرئيس ، فقد تخلّى عنها الشاعران ، فصار القارئ يدخل في عالم القصيدة منذ البيت الأول ، كقول جبري :

نمْ في ظلال الخالدين * جبارَ مصر على السنين[٤]

فقد بدأ بالرثاء ولم يعمد إلى مقدمة طللية أو غزلية ، كما كان يصنع القدماء .

وكذلك الشأن في قصائد مردم ، حيث يبدأ بغرضه بلا مقدمات ، كقوله :

تسر الناظرين فراشتانِ * بروض ناعم تتغازلان[٥]

ويندر أن تجد عندهما مقدمات بعيدة عن الغرض ، ومما جاء على هذا النمط في شعر مردم ، قوله :

طيف للمياه ماينفك يبعث لي * من آخر الليل إن هوّمت أشجانا[٦]

من قصيدة وطنية ، بدأها بهذا الغزل ، ثم عمد إلى مايسميه الأقدمون حسن التخلص ، فقال بعد أن ذكر أنينها وتوجّعها :

فبعد لأي بدا لي أن ماسنيت * به تذكّرها أهلا وأوطانا[٧]

---

(١) ديوان مردم ٢٠٤ .
(٢) المرجع السابق ٢٢٧ .
(٣) المرجع السابق ٦٠ .
(٤) نوح العندليب ١٤٢ .
(٥) ديوان مردم ٢٦ .
(٦) المرجع السابق ١٤٧ .
(٧) المرجع السابق ١٤٨ .

وقد يجعل حسن التخلص ، بألفاظ القدماء أيضا ، كقوله بعد أن تذكّر أساه وشجنه :

فعدّ عن الذكى التي تقرح الحشا * وتهتك من خدر الجفون جواريا
وحبّر على نيل الأمانـي تهانئـا * لأخلاف من فيهم أجدت المراثيا[1]

الوحـدة العضويـة :

انصرف جبري إلى التوفر على تحقيق الوحدة العضوية في شعره ، وبخاصة في قصائده الأخيرة ، ووفق في ذلك إلى حد بعيد ، ولكن بقيت عنده آثار من أسلوب الشعر العربي القديم ، الذي لايلتزم بالوحدة العضوية [2].

أما مردم ، فإن أسلوبه يجري على النمط القديم في أغلب قصائده ، ففي قصيدة (واعربيتاه) [3]، بدأ بداية ذكر فيها لوعته وحزنه ، ثم خلص إلى ذكر اللغة العربية ومامنيت به من تنكّر الأبناء وتسلّط المخرّبين ، وقد يجتمع في بعض قصائده غزل وشكوى وشعور وطني ، وإلماح إلى واقع سياسي [4].

غير أنه وفق إلى هذه الوحدة ، في قصائد الطبيعة والوصف ، حيث تعتمد على سياق القصة والحكاية ، وتتسلسل فيها الصور والمعاني [5]، وتأمل جمال الوصف في قوله عن الطفل :

هشّ لما طفلته أمه * ودنا من وجهها بالراحتين
حار مابينهما شوقهما * قبلة تجزيه عنها قبلتين
وإذا ماعبست في وجهه * عبثا أو دفعته باليدين
جمع الأنف وضم الشفتين * وزوى اللحظ وبين الحاجبين
وجرت مع نفسيه غنة * ولوى الجيد وهزّ المنكبين[6]

---

(١) ديوان مردم ٢٨٦ .
(٢) راجع مبحث الخصائص الفنية في الفصل الثاني .
(٣) المرجع السابق ١٦٢ .
(٤) ديوان مردم ، انظر مثلا : ١٤٧ و ٢٤١ و ٣٠٤ .
(٥) انظر : الشعراء الأعلام في سورية ١٢٥ .
(٦) ديوان مردم ١٢ .

إن هذه الأبيات متحدة متماسكة ، يفضي بعضها إلى بعض ، بلا نبوّ ولاتكلف ، وشبيه بها قوله في وصف الفراشتين :

أفانين من الحركات زاغت * لها عيني وعيّ بها بياني

فمن ضمّ إلى نشر لوثب * لرفرفة إلى حرب عوان

تواثبتا مثاقفة فيا من * رأى الديكين إذ يتساوران!

ورفرفتا مهاداة كما في * مهب الريح رفّت وردتان[1]

ولكي تتم الموازنة بين الشاعرين ، فيما يتعلق ببناء القصيدة والوحدة العضوية ، أعرض قصيدتيهما في ذكرى المتنبي ؛ لاتفاق موضوعهما ، وتشابه أسلوبهما .

أما مطلع قصيدة جبري[2] ، فكان رقيقا يعتمد على الخيال البديع :

خضل الظل غضة أعوادهْ * أرفيف الربيع أم أعياده ؟

وجاء مطلع قصيدة مردم[3] نظما ، لاروح فيه :

يغني الزمان وذكره يتجدّد * آمنت أن ابن الحسين مخلّد

وقد صرّع الشاعران كلاهما ، كما هو واضح .

ثم تحدّثا في الفقرة الأولى، عن خلود المتنبي، فقال جبري:

في سماع الزمان منه دويٌّ * ترك الشعر خالدا إنشاده

وقال مردم :

لم تالف الأيامُ صحبةَ غيره * أمسِ البعيدُ ويومنا ذا والغد

واتفقا في عرض بعض أفكاره ، وكان جبري أكثر احتفاءً بها وترداداً لها من صاحبه ، ومما قال :

فتراه من العروبة ملّ * نَ هوىً فهي دينه واعتقادهْ

وهو قريب من المعنى الذي ضمّنه مردم في قوله :

العرب ماصلحت على يد أعجم * حكم الأعاجم للعروبة مفسد

---

(١) المرجع السابق ٢٦ .

(٢) انظر : القصيدة في نوح العندليب ١٨٨ .

(٣) انظر : القصيدة في ديوانه ٣٦٣ .

وجاء الختام عند جبري إشارة إلى من يحاولون النيل من الشعر القديم ، وهدم بنائه ، أما مردم فختم القصيدة بقوله :

ذهب ابن أوس والوليد بحُرّه * لكن بمعجزه تفرّد أحمد

أي أنه لم يأت بمعنى جديد ، وإنما جعل خاتمته خلاصة القصيدة .

ولقد فاق جبري صاحبه ، من حيث إنه نقل إلينا روح المتنبي ، من خلال نظمه على بحر رويّ لقصيدة مشهورة له ، مطلعها :

جاء نيروزنا وأنت مرادُهْ * وورت بالذي أراد زناده[1]

فكأنه يعارضه بذلك .

ومما فاق فيه أيضا ، القدرة على تقليد المتنبي في أسلوبه ، حيث تجد الفخامة والجزالة ، وقوة التعبير ، ولو تأمّلت قوله :

أيها الشاعر الذي ملأ الدنـ * ـيا دويّـا مماتـه وولادُهْ

تعب الدهر من نكادك للدهـ * ـر ولم يتعب أصغريك نكاده

لكدت تحكم بأن هذا الشعر للمتنبي نفسه .

أما الوحدة العضوية في القصيدتين ، فهي مكتملة في أتم صورها .

الألفـــاظ :

يمكن أن نعد الشاعرين من مدرسة الطبع ، التي سارت على نهج البحتريّ ، من حيث العنايةُ بالناحية اللفظية ، والبعدُ عن الإغراب في المعاني ، فهما ممن يهتمّون كثيرا بتنقيح الشعر وتهذيبه [2].

إن مردما يرى أن « على الشاعر أن يهذّب شعره بإعمال الرويّة وإمعان الفكر » [3]، وإعمال الروية هذا يشمل اللفظ والمعنى ، وقد كان تجويده للمعاني أكثر ، وكان حرصه على الألفاظ المتميّزة واضحا ، غير أن جبري قد سبقه في هذا الأمر .

---

(١) ديوان المتنبي ٢/٤٧ .

(٢) انظر : أنا والشعر ١٠٣ ، ومقدمة جميل صليبا لديوان مردم ١٧ .

(٣) الشعراء الشاميون ، ص ٥ ، خليل مردم ، تحقيق عدنان مردم ، دار صادر ، بيروت .

ولقد صرّح الشاعران بتأثرهما بالبحتري ، وتفضيل طريقته ، فهذا جبري يقول في قصيدته عنه :

عشت في سحرك الحلال زمانا * أتلهى وقد حمدت الزمانا[١]

وذلك مردم يصف الشعر الحسن بقوله :

أرى - وحقيق بالقبول الذي أرى - * بشينين أضحى الشعر قد فضل النثرا

بنسج كنسج البحتري ، وحكمة * تضارع ماكان المعرّي به مغرى[٢]

وقد اتفق عدد من النقاد على تشبيه مردم بالبحتري[٣] ، وشبهه آخر بابن المعتز[٤] ، حيث تلمح في فنه أثر النعمة واليسار ، وتجد الدلال يلوح على ألفاظه وصوره[٥] .

إذاً فهما متفقان من حيث رقة الألفاظ ، والحرص على تجويدها ، ومن حيث إيثار مذهب البحتري ، وإن شئت شواهد على بحتريّتهما ، فاسمع قول جبري :

قالوا : عيون المها والسحر يملؤها * فقلت كلا ، فإن السحر عيناك

وما الضياء ضياء الشمس إن طلعت * وإنما النور فيض من محيّاك

وهبة الريح إن لانت ملامسها * فإنما أورثتها اللينَ كفّاك[٦]

وتأمل رقة الألفاظ وانسيابها في قول مردم :

الف الحزنَ فلو فارقه الحزنُ بكاه

وجفا اللهوَ فلو واصله اللهوُ شكاه

نفسه ليس لها غير الأسى من سكن[٧]

وانظر في قوله أيضا :

---

(١) نوح العندليب ٣٩٠ .

(٢) ديوان مردم ٤٧ و ٤٨ .

(٣) انظر مثلا : مقدمة جميل صليبا لديوانه ١٧ ، وشخصيات ٤٢ ، ومقالة أحمد الجندي عنه في مجلة العربي ١٠٢ ، العدد ١١ ، ربيع الأول ١٣٧٩هـ .

(٤) عبدالله بن المعتز (٢٤٧ - ٢٩٦ هـ) الشاعر المبدع ، خليفة يوم وليلة ، من مصنفاته طبقات الشعراء ، وأشعار الملوك ، وله ديوان ، مات خنقا . (الأعلام ١١٨/٤) .

(٥) انظر : مقالة أحمد الجندي عنه في مجلة العربي ١٠٠ .

(٦) نوح العندليب ١١١ .

(٧) ديوان مردم ٣٩ .

علقت كف بكفْ والتقى خد وخدْ في التراب[١]

تجده في الأصل بيتا للبحتري ، يقول فيه :

علقت كف بكف بيننا * فاعتنقنا، والتقى خدو خد[٢]

ولقد كان هذان الشاعران حريصيْن على جزالة الألفاظ ، حرصاً جعلهما ينقلان كثيرا من الألفاظ والتعبيرات التراثية ، ولاشك في أن الإسراف في الاستفادة من التراث يذهب بشخصية الشاعر ، ويَسْلكه في عداد المقلدين .

فمما تجده عند جبري : المطيّ وفيالق الأقيال ، وبيض الظُّبَى ، وتجد عند مردم : الآرام والعفر ، والوشيج المقوّم ، بل إنك لتقرأ بعض شعره ، فلا تجد إلا صورا وألفاظا بدوية ، كقوله :

قفوا بي ولو لَوْثَ الإزار فإنها * نشيزة نفس ماتكاد تثوب[٣]

وقوله :

بتّ أحاكي بالحنين النيبا[٤]

وقوله :

ميلا إلى مسرح الآرام والعفر * ولاتلوما فوجدا عيل محطبري[٥]

ومما تجده عند مردم ، التأريخ الشعري ، أو حساب الجمّل[٦]، وهو أمر لاتجده عند جبري ، فقد تجافى عنه ، لكونه يصرف الشعر عن أهدافه السامية ، وينزل به إلى درك الصناعة والتكلف .

كما أن قارئ ديوانيْهما ، لايعدم ألفاظا غريبة ، تسلّلت إلى شعرهما من جرّاء الانكباب على مطالعة شعر الأقدمين ، أو من الرغبة في إظهار الثقافة اللغوية ، ومن

---

(١) المرجع السابق ٣٨ .
(٢) ديوان البحتري ١/٢٩٠ .
(٣) ديوان مردم ٢١٠ .
(٤) المرجع السابق ٢١٩ .
(٥) المرجع السابق ١٩٩ .
(٦) انظر : ديوان مردم ٢٧٦ و ٣٧١ ، أما حساب الجمّل فهو : استخدام الحروف الأبجدية ومايقابلها من الأرقام العددية في تأريخ وفاة العظماء والشعراء والأحداث التي يهتم الشعراء بذكر تاريخها .

الغريب عند جبري : كلمة الهِبَاب (أي الغياب) واللُّواح (أي العطش) [١]، ومما عند مردم : يَنْحِط (أي يزفر من الإعياء) ، و المِلاع (أي المفازة المقفرة) ، والعَصَبْصَب (أي الشديد) ، والهَيْرع (أي الجبان) .

والكلمات الغريبة في ديوان مردم ، أكثر منها في نوح العندليب ، لكون جبري قد تنبه إلى مافي حشد الغريب من تكلّف وبعد عن الطبع .

كما نجد عندهما ألفاظا عامية فصيحة ، كان غرض جبري من بثّها في شعره ، الإشارة إلى فصاحتها ، مثل كلمة : تبحبح (أي توسّع) ، وفشّ (أي أخرج) [١]، وكان غرض مردم التظرف بها ، وبخاصة أنه لايوردها إلا في الشعر الهزلي ، ككلمة يلبط (أي يسقط علي الأرض) ، والسُّخام (أي سواد القدر) ، أو يستخدمها في مثل قوله عن حفيده :

فباسني واحدة * فبُستُه بلا عدد[٢]

والبوس بمعنى التقبيل عامي فصيح ، وملاءمته لغرض القصيدة لاشك فيه ، لكونها أقرب إلى روح العامة وعواطفهم .

ومن اللوازم اللفظية في شعر كل منهما ، كلمة (الألى) عند مردم ، وكلمة (درج) و (اضرب بعينك) عند جبري ، كما أنك لاتعدم ألفاظا ثقيلة عند كل منهما ، كلفظة (الدَّدِد) [٣]، عند جبري ، ومثل كلمة (لَكَلَيْلة) في قول مردم : (لكليلةٍ ظلماء ذات حلوك) [٤]، ولكن الثقل على أي حال لايشكّل ظاهرة في شعرهما .

الأسلوب :

مرّت الإشارة إلى بعض الأساليب الإنشائية التي أولع بها جبري ، مثل الاستفهام ، والأمر ، والعطف ، والنداء[٥] ، وهي أساليب تجدها عند مردم كذلك ، ولكن الغالب عليه أسلوب الخبر ، ومما يلحظه دارس شعره كثرة استخدام " كم "

---

(١) انظر : تفصيلا أكثر في مبحث الخصائص الفنية في الفصل الثاني .
(٢) ديوان مردم ٩٢ .
(٣) نوح العندليب ٢٧٦ .
(٤) ديوان مردم ٤٤ .
(٥) راجع مبحث الخصائص الفنية في الفصل الثاني .

الخبرية ، مثل :

- كم من زكي دم ونفس حرّة * فاضا لوصلك في حمى اليرموك
- كم في أزاهير الرياض لناظر * من مقلة وسنى وخد ناضر[١]

والتكرار ، مثل :

(الغوطتان) - وانت مثل جزيرة - * بحران يلتطمان في شاطيك
و(الغوطتان)- وانت بدر ساطع - * لكليلة ظلماء ذات حلوك[٣]

ومثل تكرار كأنما في مطالع الأبيات التالية :

فكأنما الأشجار فيك عرائس * .....
وكأنما بردى سبائك فضة * .....
وكأنما حصباؤه وبريقها[٤] * .....

ومن الملحوظ عندهما جميعا ، استخدام الجملة الفعلية كثيرا ، حتى إنك لتقرأ الأبيات الكثيرة ، فلا تكاد تجد إلا أفعالا متوالية ، وانظر إلى قول جبري :

تخيّرت منه رقيق النظام * يهب عليه نسيم السحر
فصوّرت أخلاق هذا الزمان * وأفصحت عما صفا أو كدر
فرويّت منا ظماء العقول * كان بيانك صوب المطر
تغنّيت في اللفظ حتى غدت * أفانين لفظك وشي الحبر
كسوت الفصاحة ديباجها * وجددت من رسمها ماندثر[٥]

وتأمل في هذه الأفعال المتوالية ، في قوله :

تعالت فطاحت فاستكانت فأصبحت
لإذلالها يلهو بها كل مازح[٦]

ثم ارجع البصر في قول مردم ، واضعا نصب عينك التشابه الكبير بين الأسلوبين :

---

(١) ديوان مردم ٤٤ .
(٢) المرجع السابق ٧٦.
(٣) المرجع السابق ٤٤ .
(٤) المرجع السابق ، الصفحة نفسها .
(٥) نوح العندليب ١٣٤ .
(٦) المصدر السابق ٢٢٣ .

في الجامع الأموي قمتَ مكبّرا * وذكرت مجد بني امية ساجدا
خلّفت في الزهراء دمعك جاريا * وتركت في الغيداء قلبك واجدا
واسيت جلق في عظيم مصابها * ونضحت عنها بالبيان مجاهدا
صعّدت انفاسا وجُدْتَ بادمع * في يوم محنتها فكنّ قصائدا
اشجاك أن نمسي الجنان بها لظى * وتبيت دارات النعيم مراقدا[1]

ولاشك في أن الإكثار من الأفعال ، يعود في المقام الأول إلى المعنى الذي يطرقه الشاعر ، وحيث إنّ معظم شعر جبري ومردم داخلٌ في معاني القومية والوطنية ، وهي تقتضي الثورة والحركة والانفعال ، كان من الملائم استخدام الأفعال التي تفيد التجدّد والحدوث .

ومما انطبع في أسلوبيهما من شعر القدماء المبالغة ، وهي كثيرة عندهما ، في أشعارهما الأولى ، كقول جبري في الرثاء :

خطب تصدّعت الجبال لوقعه * شق القلوب وفتّ في الأعضاد[2]

وقريب منه قول مردم في الرثاء أيضا :

والناس مبهوتون بين محملق * بالنعش أو مستعبر مسترجع
والمرضعات ذهلن عما أرضعت * وحسرن عن خد الذليل الأضرع
حتى إذا لحدوه قامت ضجة * كالرعد للملأ العليّ الأرفع[3]

كذلك اتّبع مردم نهج القدماء في مثل قوله :

وما وجْدُ صادٍ انضجَ الحرُّ جوفَه * بممنوع ورد إن دنا نحوه صُدّا
بأكثرَ من وجدي بها غير أنني * على كل حال قد بُرئت امرءا جلدا[4]

وهو مايسمّى : الجملة الطويلة [5]، وكذلك قوله :

فما قمريّة القس * بها الجزار مذبوحَهْ

---

(١) ديوان مردم ٣٥٥ .
(٢) أنا والشعر ١٢ .
(٣) ديوان مردم ٣٧٨ .
(٤) المرجع السابق ٢١٦ .
(٥) انظر : خليل مردم بك لفادية المليح ١٣٠ .

مشت شوطا تُظَنُّ نجت * فقرتْ وهْي مطروحة

باكثر روعة مني * غداة فُصِلت عن جنبك[١]

ومن أساليب القدماء عند مردم ، خطاب الواحد والاثنين ، وبخاصة في الشعر الوجداني ، فمن خطاب الواحد قوله :

عُجْ بالمطيّ على قبر ببلقعة * تضمّن الطهر والأخلاق والكرما[٢]

ومن خطاب الاثنين ، قوله :

خليليّ إني قد حننت لقربها * فزادت بي البلوى كما تريان[٣]

ومما التقى فيه الشاعران ، أسلوب التناسق بين الأبيات ، فتجد البيت يشبه مايليه من حيث البداية والصياغة ، مثل قول جبري :

الذائباتُ جوى على أوطانها * لم تستقرَّ من الجوى بنصابها

الناشراتُ من اليقين جلابيا * وضَحُ اليقينِ يسيل من جلبابها

الناسجاتُ من البيان مطارفا * سحرُ البيانِ يذوب في آدابها[٤]

ومثله قول مردم :

كأنها الدوحُ - إن مال النسيم به - * شواكلٌ نَشَرَتْ أشعارها كمدا

كأنها الطلُّ - والأوراقُ ترسله - * دمعٌ نَدِدٌ من آماقها بددا[٥]

والخلاصة أن أسلوب كل منهما ، كان أقرب إلى أساليب القدماء ، مع تفاوت بينهما في ذلك ، وقد خلا الأسلوبان كلاهما من التأثير الغربي ، سواء في التركيب الإضافيّ أو في شبْه الجملة [٦].

المعارضـــات :

لقد كان كلف جبري بالمعارضات أكثر من صاحبه ، وكانت أكثر قصائده الأولى

---

(١) ديوان مردم ١٨٠ .
(٢) المرجع السابق ٣٧٦ .
(٣) المرجع السابق ٣٧٢ .
(٤) نوح العندليب ١٣٩ .
(٥) ديوان مردم ١١١ .
(٦) انظر : خليل مردم بك ١٥٤ ، لفادية المليح .

داخلةً في هذا الضرب ، وقد مرت الإشارةُ إلى أقسام المعارضة عنده ، وتبيّن أن إجادته كانت في المعارضات التي يستلهم فيها تراث الشعراء والأدباء الذين يتحدث عنهم في بعض المناسبات الأدبية [١].

أما مردم فإن أغلب معارضاته ، يأتي على سبيل التأثر بالوزن ، كقوله :

قد صفت لنا الحقـــب * واحتمى بنا الطرب[٢]

فهو ينظر إلى قصيدة شوقي :

حف كاسهـــا الحبـــب * فهي فضة ذهـــب[٣]

غير أن المضمون مختلف ، وكذلك عارض قصيدةَ شوقي :

مملكـــة مدبّـــرة * باســـراة مؤمّرة[٤]

بقصيدته في وصف (الذُّعَرَة) [٥]:

ياحسنـــها طوينرة * بروضـــة منـوّرة[٦]

وموضوعا القصيدتين متقاربان ، فشوقي يصف النحلة ، ومردم يصف ذلك الطائر ، وقد أجاد في وصفه كل الإجادة .

ومن معارضاته ، القصيدة التي مطلعها :

معيني على نفس شتيتٍ جميعُها * للَمْياءَ من دون الأنام نزوعها[٧]

وفيها مشابه كثيرة من قصيدة البحتري :

منى النفس في اسماء لو يستطيعها * بها وجدها من غادة وولوعهـا[٨]

ومما نجده عند الشاعرين كليهما ، معارضة لبائية بشار ، فجبري يقول :

تطاول ليلي وادلهمت غياهبـــه * وضاقت على ضوء الصباح مذاهبه[٩]

---

(١) انظر : الحديث عن معارضاته في مبحث الخصائص الفنية في الفصل الثاني .
(٢) ديوان مردم ٩٨ .
(٣) الشوقيات ٢/٩ .
(٤) المرجع السابق ١/١٤٥ .
(٥) الذعرة : عصفورة صغيرة تهز ذنبها دائما ، لاتراها أبدا إلا مذعورة (من الديوان) .
(٦) ديوان مردم ٦٩ .
(٧) المرجع السابق ٢٢٥ .
(٨) ديوان البحتري ١/٩ .
(٩) نوح العندليب ٣٤ .

ومردم يفتتح بقوله :

أعينا على ليلٍ حيارى كواكبه * تطاول حتى أنكر الصبح راقبه[١]

وقد اتفقا في الشكوى من طول الليل ، واستبطاء الصباح ، وهي معانٍ قديمة ، وضمّنا قصيدتيهما التباكي وذكر الأسى ، غير أن جبري صرف القصيدة في آخرها إلى بعض المعاني الوطنية .

كما أن لمردم قصائد يستلهم فيها تراث من يعرض للحديث عنهم ، كما في رثائه للمتنبي وشوقي ، مثلما فعل جبري في مراثيه أيضا ، غير أن جبري يأتي سابقا في هذا المجال ، لأسباب ، هي :

١ - أنه ينظم على نمط قصيدة مشهورة لمن يعارضه ، ففي رثائه لشوقي - مثلا - يقول :

ياكرمةً ذوِيَتْ فيها أمانينا * لا الظل ضافٍ ولا الأفنان تندينا[٢]

فهي على نمط :

يانائح الطلح أشباه عوادينا * ناس لواديكَ أم نشجى لوادينا[٣]

٢ - أنه يُكثر من الإشارات لمعاني المتحدَّث عنه ، وكأنه يلخّص أفكاره وآراءه التي بثها في شعره ، ولقد جرى مردم على هذا الأسلوب ، غير أن إشاراته كانت مقتضبة ، وغير وافية .

٣ - أنه يختار اللغة الشعرية الملائمة للغة من يعارض ، ففي معارضته للمتنبي[٤] تجد أمثال هذه التعبيرات :

في سماع الزمان منه دويٌّ - طاعن الدهر وحده - شاعر المجد - تترامى به المنى والفيافي .

وفي معارضته لحافظ[٥]، يتمثّل تُجاهك أسلوبُ حافظ ، وماشُهِر به من سهولة محكمة ، كقوله :

---

(١) ديوان مردم ٢٨٤ .
(٢) نوح العندليب ١٧٧ .
(٣) الشوقيات ١٠٣/٢ .
(٤) نوح العندليب ١٨٨ .
(٥) المصدر السابق ١٧١ .

ودعت دنياك توديعا ترقرقه * شكوى يذوب على الآلام شاكيها

لقد خلعت على الأحزان مشرقة * من الحبور طوت من شجو شاجيها

ومن المعارضات عند الشاعرين ، مايأتي عفو الخاطر ، من باب التأثر بمعنى قديم ، يكون قد وعاه في ذهنه ، ثم يفيض على لسانه ، أو يعجبه بيت أو قصيدة ، فينظم على منوالها ، فمن ذلك قول جبري :

ياظبية عرضت لنا بالوادي * حيراء تحذر وثبة الأرصاد[1]

فهو ينظر فيها إلى قصيدة فؤاد الخطيب :

أمن المضارب في ظلال الوادي * ريانة الجنبات بالوراد[2]

أما مردم ، فإن قصيدته في رثاء نفسه ، شبيهة بقصيدة مالك بن الريب [3] المشهورة ، وتأمل وجوه الشبه في النغم وطابع الحزن ، ومعاني الفجيعة بين هذين المقطعين .

يقول مالك :

فيا صاحبَيْ رحلي دنا الموت فانزلا

برابية إني مقيم لياليا

وخطّا باطراف الأسنة مضجعي

وردا على عينيّ فضل ردائيا

صريع على أيدي الرجال بقفرة

يسوّون لحدي حيث حمّ قضائيا

وبالرمل مني نسوة لو شهدنني

بكين وفدّين الطبيب المداويا

فمنهن أمي وابنتاها وخالتي

ونائحة أخرى تهيج البواكيا

---

(١) المصدر السابق ٤٤ .

(٢) انظر : أنا والشعر ٩٣ .

(٣) مالك بن الريب (؟ - نحو ٦٠ هـ) شاعر من الظرفاء الفتاك ، اشتهر بقطع الطريق ، ثم غزا مع سعيد ابن عثمان بن عفان ، وتنسك في آخر حياته . (الأعلام ٢٦١/٥) .

تذكرت من يبكي علي فلم أجـد

سوى السيف والرمح الرديني باكيا[١]

ويقول مردم :

تقلّبني كف الضنى فتُمِضّني * وتعبث للأوجاع فيّ يدانِ

كأني وقد همّ القضاء وسير بي * إلى جدثي وانهدّ ركن كياني

وقام على قبري ابن عميّ حاسرا * حزينا يريق الدمعَ احمرَ قاني

وقيل لأمي وهي عجفاء نِضْوة * رمت بابنك النائي يد الحدثان

فهمت لتلقي للحضيض بنفسها * وكادت فلم تقدر من الوجفان[٢]

إن وجود تلك المعارضات بضروبها المختلفة ، في ديوانَيْ جبري ومردم ، دليل آخر من دلائل التأثر بالقدماء من ناحية ، وشاهد على ثقافتهما الشعرية الواسعة من ناحية أخرى .

الأوزان والقوافي :

تميّز شعر كل منهما بالنضج الموسيقي ، الذي لاتحس معه الأذن بنفور أو استكراه ، وقد وُصف شعر مردم بأنه نو موسيقى كلاسيكية ، تذكرنا بقصائد الفحول من القدماء [٣].

ويتلاقى الشاعران في كثرة النظم على البحر البسيط والكامل ، والبحر البسيط من الأبحر ذات الأبّهة والجلالة ، التي يعمد إليها أصحاب الرصانة [٤]، أما الكامل فإنه أكثر بحور الشعر جلجلة وحركات [٥]، وفي هذا مايدلنا على نزعة الشاعرين إلى تفخيم شعرهما ، والجنوح به إلى التأثير في الناس .

---

(١) انظر قصيدته كاملة في: جمهرة أشعار العرب للقرشي ٢/ ٧٥٩، دار العلم، دمشق ١٤٠٦ هـ.

(٢) ديوان مردم ٣٧٢ و ٣٧٣.

(٣) انظر : محاضرات في الاتجاهات الفكرية ٢١٩ .

(٤) انظر : المرشد إلى فهم أشعار العرب ٣٦٢/١ .

(٥) انظر : المرجع السابق ٢٤٦/١ .

ومن الملحوظ أن مردما نظم على أغلب الأبحر، وبعضها مما تجافى عنه جبري ، كالمنسرح والمقتضب ، كما ترد في ديوان مردم - كثيرا - الأبحر المجزوءة ، مما يدلّ على منزعه الغنائي ، بل إنه نظم بعض الأناشيد ، وأحدها يعدّ النشيد الرسمي لسورية ، وله كثير من الموشّحات وأراجيز ، لانجد لها أثرا في ديوان جبري .

أما الوزن ، فإن لكل منهما هناتٍ فيه ، ولكنها لاتشكّل قضية ، ومن أخطاء مردم في هذا الباب ، قوله :

خفْضُ الجناح لأبناء السبيل إذا * ما ازداد خدي لذي الكبريا صعرا[1]

والخلل في عَجُزه ، أما قوله :

ويا حبها زدني فهل أرجو بعد ذا[2]

فإنه يستقيم . بإسقاط الواو في (أرجو) .

أما القافية عندهما ، فهي سائرة على النمط القديم ، ماعدا ثلاث قصائد عند جبري ، وتسعاً عند مردم ، جاءت أشبه بالموشّحات .

أما أحرف الروي عندهما ، فهي جميعها من القوافي الذلل عند جبري ، أما مردم فقد زاد أن نظم على الطاء والضاد ، وهما من القوافي النُّفُر [3]، وعلى الجيم ، وهي حرف فيه عسرٌ [4]، وفي نظمه على هذه الأحرف ، ماينم على جنوحه إلى الإغراب وحبه للتنويع ، وتنكّب الجوادّ المطروقة .

ومما أغرم به جبري ، وهو نادر عند مردم ، مايُسمّيه البلاغيون ردّ العجز على الصدر ، وكان لكثرته أثر في إضعاف بعض شعره ، ومما هو عند كلا الشاعرين : مجيء هاء الوصل في تسع عشرة قصيدة عند جبري ، وعشر عند مردم ، وقد سبق أن قلت إنه دليل على أثر الشعر القديم .

أما أغلاط القوافي وعيوبها ، فهي أكثر عند مردم ، ومن الغلط في قصيدته التي مطلعها :

---

(١) ديوان مردم ٢٣٧ .
(٢) المرجع السابق ٣٧٣ .
(٣) انظر : المرشد إلى فهم أشعار العرب ٥٩/١ .
(٤) انظر : المرجع السابق ٥١/١ .

أمده الدمع حتى غاض جانده * فمن بأدمع عينيه يرافده[١]

قوله :

إن الذين تولّوا كبر نكبتنا * اخطاهمُ من قديم الدهر ارشده[٢]

حيث جاء بألف التأسيس في كل القصيدة ، وتركه هنا ، ويسمّيه العروضيون (سناد التأسيس) [٣].

ومن أغلاطه ، ماجاء في قصيدته التي مطلعها :

أدمشق ماللحسن لايعدُوكِ * حتى خصصتِ به بغير شريكِ[٤]

حيث قال :

حق الملاحة أن تصان، وما أرى * أهليك هذا الحقّ قد وفّوكِ[٥]

حيث جاء بحرف المدّ – الذي يُسمّى الردف – قبل الروي في جميع الأبيات ، وتركه في هذا البيت وبيتٍ آخر ، واسم هذا العيب عند العروضيين (سناد الردف) [٦].

وبسبب حب مردم للموشحات ، وكثرة نظمه على منوالها ، اختل عنده نظام القوافي في بعضها ، كما في قصيدة (صلاة الشاعر) [٧]، وربما جاءت القافية مستدعاة ، قلقة الموضع ، كقوله :

وكل خليل كنت آملُ ودّه * نأى ثانيا عطفيه عني بجانبي[٨]

لأن المعنى يتم عند قوله (عني) ، ولكنه جاء بما بعدها ليتم الوزن والقافية فقط ، فلم يوفق إلى كلمة مناسبة ، وقس على هذا قوله ، في وصف بردى :

سمْحٌ فإن عارضته هوّة قُذُفٌ * أراك إقدام وثّاب ودلاّح[٩]

---

(١) ديوان مردم ١٢٢ .
(٢) المرجع السابق ١٢٣ .
(٣) انظر : أهدى سبيل إلى علمي الخليل ١٣٦ ، محمود مصطفى ، نشر مكتبة محمد علي صبيح ، مصر ، الطبعة الثالثة عشرة ١٣٩٤هـ .
(٤) ديوان مردم ٤٣ .
(٥) المرجع السابق ٤٦ .
(٦) انظر : أهدى سبيل إلى علمي الخليل ١٣٦ .
(٧) انظرها في ديوان مردم ٥٢ .
(٨) المرجع السابق ٢٨٢ .
(٩) المرجع السابق ٦٢ .

فقد أوقعه الاهتمام بالقافية ، دون الالتفات للمعنى ، في التناقض ؛ حيث إن معنى (دلاّح) يناقض معنى (وثّاب) ، فالدلح : هو المشي بتثاقل [١]، وقد اختلّ البيت معنى ومبنى .

الموسيقى الداخلية :

يمكن القول بأن النضج الموسيقي في داخل القصيدة ، عند جبري أكثر تميّزا منه عند مردم ؛ لكون هذا قد التفت إلى المعنى قبل اللفظ .

ومن مظاهر التنغيم الداخلي عند جبري ، كثرة المقابلة ، مثل قوله :

في عصفة الريح حس من مصارخها * وللعباب هدير من أغانيها

فليس يُطفأ نور من مشارقها * ولايُهدّم مسعى من مساعيها[٢]

وقد تجد له شبيها في شعر مردم ، كقوله :

ففي السلم مثل الأم تراعم طفلها * وفي الحرب مثل الليث يزرا عاديا[٣]

ومردم أبرع في التقسيم ، كقوله :

فخيالها في ناظريّ ، وذكرها * بفمي ، وطيب حديثها في مسمعي[٤]

وقوله :

فيه شعور المستهام ، ودمعة الباكي الحزين ، وأنة المتوجّعِ[٥]

ولستُ أشك في أن هذا التقسيم يضفي على البيت جمالاً ، ويبعث فيه نغما جديدا ، ولأمرٍ ما استحسنه الأقدمون [٦].

ولبعض أنواع البديع جرس داخلي ممتع ، وبخاصة إن جاء سمحا غير مستكره ، كالجناس في قول جبري :

---

(١) لسان العرب ، مادة (دلح) .
(٢) نوح العندليب ١٦٣ .
(٣) ديوان مردم ٢٩٠ .
(٤) المرجع السابق ٣١٧ .
(٥) ديوان مردم ٣١٨ .
(٦) راجع : المرشد إلى فهم أشعار العرب ٧١٦/٢ .

اتثـور مصـر والدمـاء فمـا تسيـل بهـا الشعـابْ
إنـي اضـنّ بنيلهـا * أن يستفيض به الشـغاب
هدأت شمائـل أهلهـا * مثل النسيم على الحَبَاب
الملك مارتعت بنـو ٠٠ * هُ علـى المودة والحِباب[١]

ومن الجناس عند مردم ، ماجاء في قوله :

على النبك قف نبك الربوع [٢] .

وقوله :

سقى اهلا فيهم واورى حمية * فلله ما أروى ولله ماأورى[٣]

وقوله :

واحوجنـي فاخوجنـي ٠ ٠[٤]

وقد يكون مبعث الموسيقى الداخلية ، ماتجده في البيت من ألفاظ تدل بإيقاعها على المعنى المراد ، وقد مرّ بنا قول جبري :

يستفيض الحزنُ في اكبادنا * مضمرا حينا وحينا مظهرا[٥]

فإن توالي المدود ، وتكرار كلمة حينا ، قوّى المعنى ، وأضفى عليه :فما حزينا .

وقس عليه قول مردم يصف الفراشتين :

فمـن ضمرٍ إلى نشـرٍ لوثبٍ * لرفرفـةٍ إلـى حـوب عوانِ[٦]

فإنك تجد في توالي التنوين ، وتتابع هذه الكلمات المتفقة وزنا ، مايلائم المعنى كل الملاءمة ، فتكاد ترى هاتين الفراشتين تجاهك ، ومثله أيضا قوله في وصف الذّعرة :

تلفتت مريبـةً * مذعورة منفّرة
إلى علٍ وأسفـل * ويمنة وميسرة
فتـارة منقّرة * وتارة مصفّرة[٧]

---

(١) نوح العندليب ٣٠٤ .
(٢) ديوان مردم ٢٨٩ . والنبك قرية بين حمص ودمشق (معجم البلدان ٥/٢٥٨) .
(٣) المرجع السابق ٤٩ .
(٤) المرجع السابق ١٣٩ .
(٥) نوح العندليب ٢٤٨ .
(٦) ديوان مردم ٢٦ .
(٧) المرجع السابق ٧٠ .

فقد وفّق في هذه التقسيمات في داخل البيت ، إلى جلاء صفة هذه النّعرة ، كما أن البحر جاء متوازنا مع المعنى ، وللشاعرين كليهما وثبات من الإبداع في هذا الباب .

الصـورة الفنيّـة :

آمن الشاعران كلاهما بأهمية الصورة في الشعر ، وحاولا جميعا أن يجدّدا فيها ، وظهر أثر هذه المحاولة في ديوانيهما ، وكان السبق في هذا الباب لمردم ، الذي أثنى على جودة صوره الشعرية ، كثير من النقاد [١].

غير أن أكثر الصور الحسية عند مردم ، كانت رموزا تعبّر عن أحلام نفسه ورؤاه [٢]، وربما استعاض عن الصور المركّبة ، بالإكثار من القوافي المتغيّرة ، والألفاظ الدالة على المشاعر والعواطف ، كما فعل في قصيدة (الشاعر) [٣].

بيد أنك حين تفتش في صوره الشعرية ، تجده يلتقي مع جبري ، في كون أكثرها غير جديد ، وأنه يستفيد من التراث كثيرا في رسمها [٤].

فمن الصور التي استفادها من التراث ، قوله :

كأن على قلبي قطاةً ذبيحة * معلقة من شدة الخفقان[٥]

فهي منقولة نقلا ، من قول عروة بن حزام [٦]:

كأن قطاة علقت بجناحها * على كبدي من شدة الخفقان

أما قوله :

والريح تنسج مغفرا * فوق الغدير المستدير[٧]

---

(١) انظر مثلا : مقدمة سامي الدهان لديوانه ٢٦ ، والشعر العربي القومي في مصر والشام ١١٤ ، وشخصيات ٤٣ .

(٢) انظر : مقدمة جميل صليبا لديوانه ١٠ .

(٣) انظر : الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر ٨١ ، والقصيدة في ديوانه ٣٧ .

(٤) انظر : مقالة أحمد الجندي عن خليل مردم في مجلة العربي ١٠٢ ، وانظر كذلك : خليل مردم بك ، لقادية المليح ١٣٦ .

(٥) ديوان مردم ٣٧٤ .

(٦) عروة بن حزام (؟ - نحو ٣٠ هـ) شاعر من بني عذرة ، من متيمي العرب ، له قصة مع ابنة عم له اسمها عفراء ، وله ديوان مطبوع . (الأعلام ٢٢٦/٤) .

(٧) ديوان مردم ٩٩ .

فإن الصورة فيه ، تذكّر بقول الشاعر :

نسج الربيع من الماء زردْ * أي درع لقتال لو جمدْ

وانظر في قوله :

ياحسرة على الأديـ * ـب والفتى المهذّب

مضيّعا كمصحف * أمسى ببيت النصب[1]

تجده منقولا من قول الشاعر :

ظللت حيران أمشي في أزقتها * كانني مصحف في بيت زنديق

ومن المآخذ على الشاعرين جميعا ، نقل بعض الصور القديمة حرفيا ، دون مراعاة لحال العصر الذي يعيشان فيه ، ودون التفات إلى مايجدّ في هذه الحياة ، من تطوّر وتبدّل ، فمردم يقول مثلا :

بتُّ أحاكي بالحنين النيبا[2]

ويقول :

وراى البرق شاميا فحنّ * كحنين العَوْد يوما للعطن[3]

وتشبيه الحنين بحنين الإبل اجترار ، يُفقد الشعر قيمته ، في هذا العصر .

ومثله قول جبري :

رمتنا تصاريف الزمان ، ولو رمت * جوانب رضوى مااستقرت جوانبه[4]

أفلم يجد الشاعر غير رضوى ليمثّل به ؟

وفي مقابل ذلك تجد لهما تشبيهات عصرية ، وهي أكثر عند مردم ، الذي يقول :

فالأفق مثل ستار السينماء وما * عليه من صور أشباح أفلام[5]

ويقول :

وسيارة تغلي مراجل صدرها * كأن بها داءً من البث داويا

---

(١) المرجع السابق ٢٤٨ .
(٢) المرجع السابق ٢١٩ .
(٣) ديوان مردم ٢٩٦ .
(٤) نوح العندليب ٣٤ .
(٥) ديوان مردم ٥٧ .

إذا صعّدت أنفاسها خلت والها * وأنفاسه منه بلغن التراقيا[١]

ومما عند جبري ، قوله :

ياراكب الريح تطويه وتنشره * كأنّه كرةٌ تلهو بها قدم[٢]

وحين توازن بين الجديد من الصور ، والمبتكر عندهما . تحكم لمردم بالتقدم ، وتأمل في قوله يصف الشمس :

حلية تزهو السموات العلا * بسناها فإذا الغرب طواها

بثت النجمَ عيونا خلفها * يتطلّعن إلى أين سراها[٣]

فإني أظنها من مبتكراته ، ثم انظر في قوله :

ورمت حشاي بجمرة * نفذت له من مسمعي[٤]

وقوله :

عيني تريق عصارة * من قلبي المتصدع[٥]

تجد صورتين نابضتين بالحياة ، شديدتي الإيحاء ، لما فيهما من خيال بديع جديد .

أما الجديد من الصور عند جبري ، فقليل ، ومنه قوله :

إني لأمسح عن لساني همها * فأرى الهموم تفيض فوق لساني[٦]

ومما يتميّز به مردم عن جبري ، كثرة الصور الفنية في شعره ، حتى إنك لتقرأ القصيدة ، فلا تكاد تجد بيتا يخلو منها ، مثل قصيدته في ذكرى الشهداء ، ومما قال فيها :

تواجه الشمسُ منهم أوجها نَضُرت * كالماس في الشمس لألاء إذا اتقدا

كان إطراقهم في طول صمتهم * كمن يراجع معنى رائعا شردا

كان إغضاءهم إغضاءُ ذي كرم * عن الإساءة خلقا طاهرا وهدى

ومشرئبين بالأعناق نحسبهم * وردا من الهيم نحو الماء قد وردا

---

(١) المصدر السابق ٢٨٩ .
(٢) نوح العندليب ٣٤٠ .
(٣) ديوان مردم ٨٧ .
(٤) المرجع السابق ٣٥ .
(٥) المرجع السابق ٣٦ .
(٦) نوح العندليب ٢٦٢ .

تهفو رقابهم نحو السماء كمن * له بها حاجة إدراكها بعدا[١]

كما فاق مردمٌ في دقة الصورة ، حيث إنه حَرَص على إبراز كل نواحيها ، كقوله في وصف الضحية :

حنا فوقها كالذئب فوق فريسة * وماكل حان - لو تدبرتَ - مشفق

وفي فمه سكّينة ، وكلاهما * إلى دمها من شهوة يتمطّق

تكاد - ولم تُذبح - من الضيق نفسها * ومما تعانيه من الكرب تزهق

ودرّت عروق حين شد خناقها * لها الله قبل الذبح توشك تُخنَق

ولم أرها تزداد إلا وداعة * فما باله يزداد عنفا ويحنق ؟[٢]

وهذه القصيدة من رائع شعره ، وتصويره للذبيحة وافٍ ممتع .

وبعد :

فإن شخصيات الشعراء في سورية ، وفي كل بلاد العرب ، متشابهة في الغالب، قريب بعضها من بعض ؛ لاستيحائها مثلا أعلى واحدا[٣] ، غير أن وجوه الشبه تتكثّف أحيانا ، بين شاعرين ، أكثر من غيرهما ، وهو مايراه الدارس لشعر جبري ومردم ، اللذين يعدان من الشعراء الذين تميّز الشعر السوري على أيديهم ، بعدما كان يدور في فلك الشعر المصري [٤].

وسبب تميّزه على أيديهم عائد إلى أمور ، منها :

- الميل إلى التجديد في الأغراض والمعاني [٥].
- « الحرص على جزالة العبارة وطول النفس ، واتساع البحر ، والجنوح إلى التشبه بالأقدمين في تحلية قصائدهم أو ترصيعها ببعض المأثور من أقوالهم » [٦].

---

(١) ديوان مردم ١١١ .
(٢) المرجع السابق ٨٣ .
(٣) انظر : النقد الأدبي الحديث في سورية ٩٤ .
(٤) انظر : المرجع السابق ٣٥ ، وانظر كذلك : شاعر الشام خليل مردم ٢٦٦ .
(٥) انظر : اتجاهات النقد الحديث في سورية ١٦٤ .
(٦) فنون الأدب المعاصر في سورية ٤٠١ " بتصرف " .
وانظر في هذا الصدد : الصراع بين القديم والجديد ٥١٦/١ .

ب - موازنة موضوعية وفنية
بينه وبين محمد كرد علي

محمد كرد علي :

هو محمد بن عبدالرزاق بن محمد كرد علي[١] ، ولد في دمشق عام ١٨٧٦م[٢] ، ويعود أصله إلى العرق الآريّ فأسرته من أكراد السليمانية ، وهاجرت قديما إلى الشام[٣].

ولما بلغ السادسة من عمره ، تلقى مبادئ القراءة والكتابة والحساب والطبيعيات ، في مدرسة كافل سيباي الأميرية[٤]، ثم التحق بالمدرسة الرشدية الاستعدادية[٥]، وفقد والده وهو في الثانية عشرة من عمره[٦].

وقد كان ذا شغف بالاطلاع والقراءة ، فأحسن التركية . وأتقن الفرنسية وآدابها ، بعدما تردّد على مدرسة الآباء العازاريين بدمشق[٧]، وتنوّق الفارسية . كما حفظ أكثر شعر المتنبي ومقامات الحريري[٨] ، وظهر أثر ذلك في أدبه .

وفي مطلع حياته ، اتصل بالأساتذة « الشيخ طاهر الجزائري[٩] ، والسيد محمد المبارك[١٠]، والشيخ سليم البخاري[١١] » وأخذ عنهم كثيرا من علوم اللغة والأدب

---

(١) الأعلام ٦/٢٠٢ .
(٢) انظر : الأدب العربي المعاصر في سورية ١٩٣ .
(٣) انظر : مذكرات محمد كرد علي ١/١٤ ، مطبعة الترقي بدمشق ١٣٦٧هـ .
(٤) رجالات في أمة ١/٣٥ .
(٥) الأعلام ٦/٢٠٢ .
(٦) المرجع السابق ، الصفحة نفسها .
(٧) انظر : مجمع اللغة العربية بدمشق في خمسين عاما ٢٨ ، د. عدنان الخطيب ، مطبعة الترقي بدمشق .
(٨) انظر : محمد كرد علي ١٩ ، جمال الدين الألوسي ، وزارة الثقافة والإعلام ، بغداد ، الطبعة الثانية ١٩٨٦م ، وانظر كذلك : الأعلام ٦/٢٠٢ .
(٩) طاهر الجزائري (١٢٦٨-١٣٣٨هـ) بحاثة ، من أكابر العلماء باللغة والأدب في عصره ، كان كلفا باقتناء المخطوطات ، فساعد في إنشاء الظاهرية بدمشق ، وله عدة مصنفات . (الأعلام ٣/٢٢١) .
(١٠) محمد المبارك (١٢٦٣ - ١٣٣٠هـ) من فضلاء دمشق ، أصله من الجزائر ، وله ست رسائل في الأدب ، وله شعر . (الأعلام ٧/٧٧) .
(١١) سليم البخاري (١٢٦٨-١٣٤٧هـ) من طلائع الإصلاح الديني في سورية ، كان مهيبا وقورا ، ويعد من أوائل أعضاء المجمع العلمي بدمشق ، واعتزل معتكفا في آخر حياته حتى توفي .(الأعلام ٣/١١٦).

والتاريخ والتفسير[١] .

وبدأ حياته الفكرية بمزاولة الصحافة ، فتولّى تحرير جريدة الشام الأسبوعية سنة ١٣١٥هـ[٢]، فضويق بسبب نزعاته الإصلاحية ، حتى اضطر للهرب إلى مصر ، واشترك في تحرير بعض صحفها ، وأسس فيها مجلة المقتبس[٣].

ثم عاد إلى دمشق عام ١٩٠٨م ، فتابع إصدار مجلة المقتبس ، ثم اتهم بمعاداة العائلة السلطانية ، ففر إلى مصر فأوروبا ، وعاد بعد تبرئته من ذلك[٤].

ولما أُسّس المجمع العلمي العربي ، عُهد برئاسته إليه ، عام ١٩١٩م[٥]، وأنشئ بمسعى منه متحف للآثار العربية ، عام ١٩١٩م ، بعدما لفت نظره وضع الآثار ، التي تعرض كثير منها للسطو والتخريب[٦].

وفي عهد الاحتلال الفرنسي ، تقلد منصب وزارة المعارف ، مرتين[٧]، وانتخب عام ١٩٣٣م عضوا في مجمع اللغة العربية بالقاهرة[٨]، وكانت له مشاركة في تدريس الآداب العربية في معهد الحقوق بدمشق[٩].

وفي الشطر الأخير من عمره ، انصرف إلى الدراسات الأدبية والتاريخية ، وظل رئيسا للمجمع العلمي العربي ، حتى وافته منيته في الثاني من نيسان « إبريل » عام ١٩٥٣م[١٠]، الموافق لعام ١٣٧٢هـ[١١] .

آثـــاره :

يعد محمد كرد علي أباً للنهضة الفكرية في الشام ، وقائدا لها[١٢]، بسبب

---

(١) انظر : محمد كرد علي ١٩ .
(٢) انظر : الأعلام ٢٠٢/٦ .
(٣) انظر : الأدب العربي المعاصر في سورية ١٩٣ .
(٤) انظر : الأعلام ٢٠٢/٦ .
(٥) المجمع العلمي العربي في خمسين عاما ٧ ، نشر المجمع نفسه ، دمشق ١٣٨٩هـ .
(٦) انظر : المرجع السابق ١٨ .
(٧) انظر : الأعلام ٢٠٣/٦ .
(٨) انظر : الأدب العربي المعاصر في سورية ١٩٤ .
(٩) انظر : رجالات في أمة ٣٩/١ .
(١٠) انظر : المرجع السابق ٤٠/١ .
(١١) انظر : معجم المؤلفين ١٦٢/٩ ، عمر رضا كحالة ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، بلا تاريخ .
(١٢) انظر : فكر ومباحث ١٢٩ .

ماأثرى به المكتبة العربية من مؤلفات عظيمة ، وآثار جليلة ، في الأدب والتاريخ والتراجم ، ولذلك قيل : إن إمارة العلم كانت معقودة له ، كما عقدت إمارة الشعر لأحمد شوقي[١].

ومن آثاره :

١ - مجلة المقتبس ، ثمانية مجلدات وجزآن .

٢ - رسائل البلغاء .

٣ - غرائب الغرب .

٤ - غابر الأندلس وحاضرها .

٥ - تاريخ الحضارة .

٦ - القديم والحديث .

٧ - رواية المجرم البريء (مترجمة) .

٨ - قصة الفضيلة والرذيلة (مترجمة) .

٩ - رواية يتيمة الزمان (مترجمة) .

١٠- خطط الشام .

١١- حرية الوجدان .

١٢- الحرية المدنية .

١٣- الحرية السياسية .

١٤- كنوز الأجداد .

١٥- مكتشفات الأحفاد .

١٦- أمراء البيان .

١٧- أخلاق المعاصرين[٢].

١٨- الإسلام والحضارة الغربية .

١٩- أقوالنا وأفعالنا .

٢٠- غوطة دمشق .

---

(١) انظر : عبقريات شامية ١٦ .

(٢) وردت أسماء هذه الكتب في : خطط الشام ٦/٢٤٦ .

obeikandl.com

٢١- دمشق مدينة السحر والشعر .

٢٢- المذكرات [١].

ومن الكتب التي حققها :

١ - سيرة أحمد بن طولون للبلوي .

٢ - تاريخ حكماء الإسلام للبيهقي .

٣ - الأشربة لابن قتيبة .

٤ - رسائل البلغاء [٢].

٥ - المستجاد من فعلات الأجواد ، للتنوخي .

٦ - كتاب البيزرة [٣].

دواعي الموازنة بينهما :

دعا إلى عقد هذه الموازنة ، بين هذين العلمين ، مابينهما من وجوه شبه كبيرة ، واتفاقهما في كثير من المشارب والآراء ، فمن ذلك :

١ - المعاصرة ، وهي شرط من شروط الموازنة في رأي جبري[٤] ، مضافا إلى ذلك كونهما صديقين متصافيين [٥].

٢ - ومنها أن كلا منهما كان ذا علاقات واسعة ، مع كثير من معاصريهم ، من العرب والمستشرقين ، ويكفي للدلالة على هذا عند محمد كرد علي ، النظر في كتابيه « المذكرات » و« المعاصرون » .

٣ - كما أن بين أخلاقهما وطباعهما وجوه شبه ، وقد بسطت القول في صفات جبري [٦] ، ويمكن ملاحظة الشبه بينها وبين ماوصف به محمد كرد علي نفسَه ،

---

(١) انظر : الأدب العربي المعاصر في سورية ١٩٥ .
(٢) المرجع السابق ١٩٥ .
(٣) محمد كرد علي ٢٤٢ .
(٤) انظر : أين تعلم المتنبي ، بقلم شفيق جبري ، ص ٣٤٠ ، مجلة المجمع ج ٦ ، مج ١٠ .
(٥) انظر : كنوز الأجداد ، حاشية الصفحة ١٥٤ ، محمد كرد علي ، دار الفكر ، دمشق ، ط الثانية ١٤٠٤هـ . وانظر أيضا : مذكرات محمد كرد علي ١/٤٠ .
(٦) راجع مبحث شخصيته في الفصل الأول من هذا البحث .

obeikandl.com

في قوله : « خُلِقتُ ... محبا للطرب والأنس والدعابة ، عاشقا للطبيعة والسياحة .... أعشق النظام والتدقيق ، وأحب الحرية والصراحة .... أخلص للصاحب ، وأخدمه خدمة خالصة .... أكره الفوضى وأتألم للظلم ، وأحارب التعصب وأمقت الرياء »[١] ، « وتنقبض نفسي منذ الصغر من غشيان المجالس والمجتمعات الغاصة بأنواع الناس »[٢].

٤ - ومنها اتفاقهما في سعة الاطلاع في تراث العرب ، وفي التأليف في الرحلات والتراجم ، ومشاركتهما في الصحافة ، وفي إتقان اللغة الفرنسية ، والنقل عنها[٣].

٥ - كما أنهما اهتما جميعا باللغة ، واعتنيا بها ، ثم كانا من بعد عضوين بارزين من أعضاء المجمع العلمي العربي .

٦ - والناظر في كتبهما الأدبيّة ، يلحظ مشابه في الأسلوب عند كل منهما ، سوف يأتي الحديث عنها مفصلا - بإذن الله - .

تلك أهمّ الدواعي ، لعقد هذه الموازنة بين شفيق جبري ومحمد كرد علي ، بوصفهما كاتبيْن ، ولعلها تجلو شيئا من أدبهما الرصين ، وتعين على نوق آثارهما العالية فنا وفكرا .

أولاً : الموازنة الموضوعيّة :

أسهم محمد كرد علي وشفيق جبري ، في كتابة المقالة ، وألّف كل منهما كتبا في التراجم والسير ، ودوّنا رحلاتهما ، وكانت لهما مشاركات ثقافية واسعة ، عن طريق المحافل الأدبية ، والمهرجانات .

وعند النظر في الموضوعات ، التي تطرّق إليها كل منهما ، يَتّضح التوافق الكبير في بعضها ، مثل : التغنّي بالوطن واللهج بذكره ، وتجد شاهد ذلك عند محمد كرد علي ، في تأليف عدة كتب عن الشام وتاريخها ، وأعظمها كتاب (خطط الشام) ،

---

(١) خطط الشام ٦/٢٤٦ .
(٢) المرجع السابق ٦/٢٤٧ .
(٣) انظر : مقدمة سامي الدهان لكتاب (أمراء البيان) لمحمد كرد علي ، ص (ح) ، دار الأمانة ، بيروت ، الطبعة الثالثة ١٣٨٨هـ .

ومنها كتاب (دمشق مدينة السحر والشعر) ، ثم إنه خص (غوطة دمشق) بكتاب ثالث ، وهي المكان الذي ألِفه وقضى فيه شطرا من عمره .

أما جبري ، فإنّه لم يَخُصَّ وطنه بكتاب ، ولكنه نثر حبه له ، وشوقه إليه في تضاعيف كتبه ، فلست تعدم إشارة إليه في كل ماكتب [١].

ولم يقفِ الكاتبانِ حبَّهما على الوطن الصغير ، بل تجاوزا ذلكَ إلى التغني بأوطانِ العرب جميعا ، وبخاصة مصر ، التي لهجا بذكرها ، وأشادا بفضلها على العرب ، غير أن كرد علي ، انقلب رضاه عن مصر سخطا ، وإعجابه بكتّابها وأدبائها ثورة عليهم ، مما دعا جبري إلى نقده ، ووصفه بالتناقض[٢] .

ويتفق الكاتبان في كونهما من دعاة الانبعاث والتحرر من ربقة الاستعمار ، كما تبرز روحاهما المتحمستان للإسلام وتاريخه ، الذابّتان عنه كيد أعدائه ، وهذه السمة أكثر ظهورا عند كرد علي[٣] ، مما دعا بعض الباحثين إلى أن يعده « في مقدمة زعماء العرب القوميين »[٤].

ولقد طابق رأي شفيق جبري ، رأي محمد كرد علي الرافض للدعوة إلى نبذ القديم ، والأخذِ بهذا الحديث على علاته[٥].

كما اتّفقا في كونهما من الغُيُر على اللغة العربية ، وممن بكوا مجدها ، ودعوا إلى الاعتناء بها ، وحاربوا من يدعو إلى هجرها أو التنقّص منها[٦] ، ولقد كان عندهما ولع بتتبّع شواردها واهتمام بجمع الفصيح من كلام العامة ، وقد مرّت الإشارة إلى مقالات جبري ، التي سماها (بقايا الفصاح) ، أما كرد علي فتجد شواهد ذلك في سلسلة مقالاته في مجلة المجمع ، عن الفصيح والمولد في كلام أهل الغوطة ، وهي التي جعل بعضَها فصلا في كتابه عن الغوطة [٧].

---

(١) انظر مثلا : الجاحظ ٥٢ .

(٢) انظر : محاضرات عن محمد كرد علي ٦٥ .

(٣) انظر مثلا : دمشق مدينة السحر والشعر ١٦ .

(٤) محمد كرد علي ٩٤ " بتصرف " .

(٥) انظر : الأدب والقومية في سورية ٢٢٧ .

(٦) انظر : النثر الأدبي الحديث في سورية ٢٢٤ ، و : اتجاهات النقد الحديث في سورية ١٢٦ .

(٧) انظر : غوطة دمشق ٣٠ ، وانظر كذلك : المذكرات ١١١٣/٤ ، وانظر أيضا : مجلة المجمع ، ص ٧ ، ج ١-٢ ، مج ١٩ .

ولقد كان للكاتبيْن كليهما صولات في النقد ، إذ كانا يعرفان قيمته وأثره في رفع مستوى الأدب ، بل إن كرد علي يرى أن النقد « من أهم الذرائع في السير نحو الكمال إلى بحابح المدنية »[١].

غير أنّ النتاج النقدي عند كرد علي ، يقلّ كثيرا عن مستواه عند جبري ، لشغف الأخير بمتابعة كل إنتاج ، حيث نشر في مجلة المجمع مقالات عديدة ، في عرض كثير من الكتب ونقدها ، ولانصراف كرد علي إلى المقالات التي تعالج مشاكل المجتمع ، وتعرض المسائل الوطنية والتاريخية .

ومما يتصل بالنقد ، موقف كل منهما من الشعر ، فأما جبري فقد كان شاعرا مغلقا ، يرى أن الشّعر رسالة سامية ، وقد ردّد هذا المبدأ مرارا ، كقوله :

هكذا الشاعر في الحانه * ينفض الأكفان عما غبرا[٢]

أما كرد علي ، فقد مال في مطلع أمره إلى الشعر ، فنهاه بعض أساتذته ، ورغب إليه في التوفّر على العلم[٣]، فكان لذلك بليغ الأثر في انصرافه إلى النثر ، وتفضيله إياه على الشعر[٤]، وعلّل هذا التفضيل بأن « الشعر خيال وحس ، والكتابة عقل وحقيقة ، وحاجة الممالك في تدبيرها إلى العقول ، أكثر من احتياجها إلى العواطف »[٥].

من أجل ذلك كان إنتاجه العلمي غزيرا ، ودلت كثير من كتبه « على سعة وعمق ورسوخ في البيان والمعرفة ، وبحث وتحقيق ، ندر أن توفّر عليهما غيره من أعلام الفكر ورجال البيان »[٦]، وقاده ذلك أيضا إلى الاحتفال بالتاريخ وحقائقه ، والتوفّر على استنطاق عبره وعظاته[٧] ، حتى رغبت نفسه عن كتابة القصة ؛ « لاعتقاده أنها مختلقة ، والاختلاق مما تأباه طباع من اعتاد التدقيق في النصوص »[٨].

---

(١) خطط الشام ٤/٨٩ .
(٢) نوح العندليب ٢٤٤ .
(٣) انظر : رجالات في أمة ١/٣٦ .
(٤) انظر : مع أعلام الشعر والأدب ٧٤ ، السيد علي إبراهيم ، منشورات حمد ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٧٤م .
(٥) أمراء البيان ١٥ .
(٦) مع أعلام الشعر والأدب ٧٤ .
(٧) انظر : مجلة المقتبس ، ص ٢٢٦ ، ج ١٠ ، مج ٦ ، على سبيل المثال .
(٨) في المختبر ٢٢١ " بتصرف " .

وهذا الموقف من القصة نجده عند جبري ، الذي عزف عن كتابتها ، ورأى أن أغلب القصص التي ظهرت عندنا مجردة من الفن ؛ لأن كتابنا يعتقدون أن القصة حكاية نحشر فيها كل شيء ، واقترحَ أن نتوفّر على ترجمة طائفة من القصص والروايات حتى يرسخ لدينا هذا الفن [١].

غير أن الموضوع الذي استأثر باهتمام كرد علي ، ودارت في مجاله معظم كتاباته ، هو الإصلاح الاجتماعي [٢]، ونقد أحوال الناس ، ودراسة المظاهر الحيوية لهم ، كالهجرة وطلب العيش وغيرها [٣]، ولقد صور في كثير من مقالاته « عصور الظلم والاستبداد ، وحارب الجهل والجهلاء ، ودعا إلى التحرر من الخرافات ، كما دعا إلى التجديد ، والأخذ بالصالح من وسائل المدنية الحديثة » [٤].

وإنه ليصرّح بغرضه من تأليف بعض الكتب ، كما فعل في إهدائه لكتاب (أقوالنا وأفعالنا) ، حيث قال : « حاولت ... معالجة بعض مشاكلنا الاجتماعية ، وعرضت لوصف طبقة من الناس » [٥]، ولقد كانت معالجته لبعض المشاكل الاجتماعية موفقة صائبة ، بشهادة جبري نفسه ، الذي قال عن الكتاب : « عين تصل إلى أعماق المجتمع ، فتقف على مساوئ أخلاقه وعاداته وأوضاعه » [٦].

ويعد كرد علي من الكتاب المعتدلين في التجديد [٧]؛ لكونه عالج بعض الموضوعات بإيجابية مخلصة ، كقضية التوفيق بين واقع العرب ومعطيات العصر ، وإن كانت معالجته لبعضها الآخر معالجةً سطحيّة قاصرة ، كقضية توزيع الثروة [٨].

---

(١) انظر : أنا والنثر ١٥٤ .

(٢) انظر : مجلة المقتبس ، ص ٧٣٧ ، ج ١٢ ، مج ٦ ، على سبيل المثال .

(٣) انظر مثلا : القديم والحديث ٢٣١ و ٢٥١ ، محمد كرد علي ، المكتبة التجارية الكبرى ، مصر ، ط الأولى ١٣٤٣هـ .

(٤) محمد كرد علي ١٤ و ١٥ " بتصرف " .

(٥) أقوالنا وأفعالنا (نقلا عن محمد كرد علي للألوسي ٢٢٧) .

(٦) من مقالة عرض فيها هذا الكتاب ، مجلة المجمع ، ص ١٥٠ ، ج ٣ - ٤ ، مج ٢٢ .

(٧) انظر : محاضرات في الاتجاهات الفكرية ١٣٦ .

(٨) انظر : فنون الأدب المعاصر في سورية ٣٥ و ٤٤ .

وإنك لتجده حينا يعالج بعض القضايا ، بنزعة منطقية وروح متفتحة ، كفعله حين تصدى للتخريف والبدع والتصوّف [١]، وقد يعرض المشكلة بنَفَس هادئ ، كالحديث عن وضع المرأة في المجتمع ، واستمع إليه يقول : « كنت ولا أزال ظهيرا للمرأة ، محبا لإنصافها ... داعيا لإمتاعها بحجابها الشرعي ... وكنت ومابرحت على مثل اليقين أن من يعاون المرأة على مساواة الرجل يخدعها ويضحك منها » [٢].

غير أنه يعالج بعض المشاكل الأخرى بثورة عنيفة ، وعصبية « فلم يرزق الصبر الذي يرزقه المصلحون » [٣]، وتأمل في قوله : « حقيقة ، نحن جامدون إلى حد السخف ، لاننزع القديم البالي بالسرعة الواجبة ، ولاننزع إلى الجديد النافع بدون جدال لاطائل تحته » [٤]، وقوله : « وماذا أصف من تسرب الجهل إلى العبث بالعقول في تلك القرون ، وإنك لترى أثرا من آثاره لهذا العهد ، عن بعض من فطموا أنفسهم من النظر في المعقولات منا ، فترى كلمات التضليل والتكفير والتبديع والتفسيق أسرع إلى أفواههم من الماء إلى الحدور ، وترى الغر الغمر يتحكم بالجنة ، فيعطيها لمن يشاء ، ويخرج منها من يشاء ، فوارحمتاه على أناس أضاعوا فضل عقولهم في الجدل » [٥].

إنك واجدٌ في هذين النصين لكرد علي ، روحا عنيفة ونَفْساً ثائرة ، يؤلمها ذلك الوضع ، فتودُّ تغييره وإصلاحه ، متخذة هذا الأسلوب التقريعيّ في أكثر الأحيان .

وهذه النزعة إلى الإصلاح الاجتماعي عند كرد علي ، كانت أشبه بالشمس المشرقة ؛ لاستحواذها على أكثر ماكتب ، أما جبري فقد كان لديه شيء من اهتمام بإصلاح المجتمع ، ولكنه أشبه بالنجم ، يضيء حينا ويخفت أحيانا ، وأكثر ماتجد ذلك عنده ، على هيئة استطرادات أو لمحات عاجلة ، كقوله حين عرض لبعض مظاهر الحرية في العصر العباسي : « الحرية إذا جعلت في غير مواضعها انقلبت أسوأ

---

(١) انظر : المرجع السابق ٣٣ .
(٢) أقوالنا وأفعالنا (نقلا عن فنون الأدب المعاصر في سورية ٣٩).
(٣) مجاضرات عن محمد كرد علي ٧٨ " بتصرف " .
(٤) محمد كرد علي ٢٨٥ .
(٥) القديم والحديث ٢٢ .

منقلب »[١]، وقوله أيضا : « فلا شك في أن الحرية التي تؤدي إلى الإخلال بالمصلحة العامة ، إنما هي حرية فاسدة بتراء »[٢] ، وثمة نماذج أخرى متناثرة في (أرض السحر)[٣] تُسلك في هذا المنزع ، والغالب عليها اللمحة العارضة بأسلوب هادئ أقرب إلى التعريض والرمز .

فـــن المقالـة :

يعد محمد كرد علي وشفيق جبري ، من كبار كتاب المقالة في الشام ، وبيْن أنماط مقالاتهما تشابه واختلاف ، أجملها فيما يلي :

أما عناوين المقالة عند جبري ، فقد كان الغالب عليها الصبغة الأدبية ، مثل : (فن الشيخوخة) و (فن التفكير) و (جباران عنيدان) ، وأما كرد علي ، فإن أغلب عناوينه تنحو منحى علميا ، مثل : (فُصَح وشوارد) و (القول في وطنيتنا) و (الاشتراكية في مصر) ، وربما تشابهت هذه العناوين من حيث البناء اللفظي ، مثل : (في عاداتنا) و (في عاميتنا) و (في انحطاطنا) و (في الوحدة العربية) و (في حقوق الإنسان) . فهي مباشرة تشي بمحتواها أول وهلة ، وجماع القول : إن عناوين جبري أرق وأطرى ، وأكثر تشويقا للقارئ .

وقد أغرم جبري بوضع استفهام ، أو نقل نص في كثير من مقدمات مقالاته ، أما كرد علي فإن الغالب عليه أن يبدأ بموضوعه دون مقدمة ، وقد يعمد أحيانا إلى البدء ببيت أو عدة أبيات[٤].

وانظر في هذه الجمل التي بدأ بها مقالته عن (الموسيقا الغربية) تلحظْ أنه شرع يصفها من أول جملة بلا مقدمات : « مدعاة السرور .. مسلاة الحزين ، مفرّجة الكروب ، مهوّنة الخطوب ، عنوان الحياة الداخلية ، مظهر الأخلاق القومية »[٥]، وهذا النمط من الاستهلال هو الغالب على مقالات كرد علي ، أي أنه يعرض الفكرة بلا

---

(١) دراسة الأغاني ١٩٢ .
(٢) أحمد فارس الشدياق ١٦٥ .
(٣) انظر مثلا : ص ٤٢ و ٥٢ و ١٩٥ .
(٤) انظر : القديم والحديث ٢٧٠ و ٢٨٢ على سبيل المثال .
(٥) المصدر السابق ٢٢٨ . وفي هذا الوصف مافيه من الغلو والتجاوز .

مقدمات ، وإليك هذا المثالَ ، من مقالته (الشعوبيون والمدنية العربية) ، حيث بدأ بقوله : « أنكر بعض الشعوبيين من أعداء العرب فضل المدنية العربية على العالم ، في زمن العنجهيات القومية »[١]، ففي هذه الجملة القصيرة أشعر الكاتبُ قرّاءه بالموضوع الذي سيطرقه ، وجعلهم يتهيؤون لتقبّل ماسيقول .

أما وحدة الموضوع عندهما فهي متوافرة في أجلى صورها ، فالمقالة تعالج موضوعا واحداً متماسكا ، ومن النادر أن تجد استطراداتٍ تُخلّ بتلك الوحدة الموضوعية ، ومن هذا النادر بعض مقالات جبري الصحفية ، وشبيه بها بعض مقالات لكرد علي ، ناقش فيها عدة قضايا ، وقسّمها إلى مباحث قصيرة[٢].

وتأتي خاتمة المقالة عندهما متشابهة ، فهما يعمدان غالبا إلى تلخيص الفكرة المطروحة ، في جمل قصار ، تركّز المعاني وتجمعها[٣]، كقول كرد علي في خاتمة مقالته عن هلال رمضان ، مشيرا إلى الاختلاف في بدء الصيام : « حقيقة ، نحن جامدون إلى حد السخف ، لاننزع القديم البالي بالسرعة الواجبة ، ولا ننزع إلى الجديد النافع بدون جدال لاطائل تحته »[٤].

ومما يتميّز به كرد علي طول مقالاته ، ولعل من أسباب هذا الطول كثرةَ نقوله[٥]، كما أن بعض مقالات جبري ، لاتخلو من إسراف في النقل ، وهو مما يُضعف شخصية الكاتب ، ويطمسها في غمرة النصوص .

أما أنواع المقالة عندهما من حيث الأسلوب ، فقد مرّ بنا أن المقالة الأدبية هي الغالبة في إنتاج جبري ، وعلى الضدّ منه نجد المقالة العلمية تستحوذ على مقالات كرد علي ، مثل (أصول الوهابية)[٦] و (أصل المعتزلة)[٧] و (الإنشاء والمنشؤون)[٨].

---

(١) نقلا عن : الأدب العربي المعاصر في سورية ١٩٨ .
(٢) انظر : القديم والحديث ١٠٨ .
(٣) راجع مبحث المقالة عند جبري في الفصل الثاني من هذا البحث .
(٤) نقلا عن : محمد كرد علي ٢٨٥ .
(٥) انظر مثلا : مقالة (الحافظة والحفّاظ) في القيم والحديث ٧٠ .
(٦) القديم والحديث ١٥٧ .
(٧) المرجع السابق ١٤٨ .
(٨) المرجع السابق ٨٦ .

إن كرد علي يكتب - غالبا - بغرض الإفادة العلمية والإقناع ، وقليلا مايكتب ليمتع قارئه ويذيقه أفانين الكلام وضروب البيان ، وسر ذلك عائد إلى كونه يشعر في قرارة نفسه أنه من العلماء لا الأدباء ، ومن اطلع في إنتاجه وجد أثر العلم واضحا ، ولكنه لايعدم مواضع مما كتب ، يتصيّد فيها صور الجمال ، ويتوخّى الإمتاع ، ويسترسل خلف عواطفه ، ويطلق لقلمه العنان ، وسوف تأتي نماذج على هذا عند التعرض للموازنة بين أسلوبيهما .

وعند النظر في أنواع مقالاتهما ، من حيث موقف الكاتب من موضوعه ، تجد امتزاج الذاتية بالموضوعية ، هو السمة الغالبة على مقالات جبري ، الذي صرّح في كثير من المواضع بأنه يُعنى بنفسه ، وأنه يعبّر عن مشاعره في أكثر مايكتب [١].

أما كرد علي ، فقد غلبت عليه السمة الموضوعية ، وشكّلت أكثر إنتاجه ، ولكنك تجد بضع مقالات ذاتية خالصة ، مثل مقال (في عشر الثمانين) [٢].

أما الأسلوب الذي نهجه الكاتبان في عرض الأفكار ، فهو السهل المرسل ، الذي لاتشوبه شائبة من تكلف ، يحرصان فيه على وضوح الفكرة والإفصاح عن القصد ، وتجد هذا الأسلوب أكثر نصاعة ، في مقالات كرد علي الاجتماعية والإصلاحية ، إذ نَهَج فيها نَهْج كتاب الاجتماع والإصلاح [٣]، وهو فيها هادئ متزن ، بعيد عن الانفعالات .

وتتّسم المقالة السياسية - بخاصة - عند كرد علي بالعنف ، ولعلك تلحظ هذا منذ أن تقرأ بعض عناوينها ، مثل مقالة (قلة حياء) ، التي ردّ بها على كلمة لمندوب فرنسا في المغرب ، ومن الجمل العنيفة فيها ، وصفه ذلك المندوب بأنه « لايخجل من التصريح بالكذب على رؤوس الأشهاد » وأن دعواه « من أسخف ماسمع » [٤].

وهذا العنف في تناول القضايا السياسية ، أمر وارد عند كل كاتب ، وبخاصة في أوقات التوتّر السياسي ، ولذا نجد في بعض مقالات جبري السياسية شيئا من

---

(١) انظر : أنا والنثر ١٤٩ .
(٢) مذكرات محمد كرد علي ٦٤٩/٢ .
(٣) انظر : محمد كرد علي ٢٩٣ .
(٤) مذكرات محمد كرد علي ١٠٠٨/٤ .

العنف والشدة ، ولكنها لم تبلغ مابلغته مقالات كرد علي .

فـن السـير والتراجـم :

كانت مشاركة هذين الكاتبين في هذا الفن ، ذات أثر واضح ، لما عهد عنهما من علوّ كعب في البيان ، واتساع في المعرفة ، وقد شملت مؤلفاتهما السيرة بنوعيها ، الذاتية والغيرية .

١ - السـيرة الذاتيّـة :

كتب محمد كرد علي مذكراته ، وسجّل شفيق جبري قصته مع الشعر والنثر ، ومن ثمة يبدأ الاختلاف ، حيث إن كرد علي قيّد سيرته بالمعنى الفني الكامل ، أي أنه ذكر دقائق حياته وجلائلها ، أما جبري فاقتصر على ذكر علاقته بالشعر والنثر ، ولم يعرض لحياته الخاصة إلا نادرا .

ومعلوم أن السيرة الذاتية « معرّضة للقصور ، إذا حابى الكاتب نفسه ، أو أخفى بعض أسرارها »[١]، ولذلك عمد الكاتبان إلى ذكر كل مايتّصل بما عقدا العزم على ذكره ، بعفويّة وصراحة .

وتعدّ مذكرات كرد علي من أطول ماوعاه الأدب العربي وأطرفه من مذكرات في القديم والحديث ، وفيها من علو الأسلوب وحسن البيان مالا يجوز لمؤرخ الأدب الحديث إغفاله[٢].

وقد أحدثت مذكراته دويّا في دنيا الأدب ، لم يحدثه كتابا جبري ، لكون الأخير تعرّض لقضايا فنية بحتة ، ولم يتعرض لذكر أحد ، أما كرد علي ، فقد صرّح بأسماء رجال ، فأثار غضبهم ، وجرّ على نفسه عداوات ، وكأنما أراد أن يشفي صدره ممن أساؤوا إليه ، « فلم يترفّع أن يقابل السيئة بمثلها ... وعُدَّ متجافيا عن اللياقة »[٣] .

---

(١) الأسلوب ٩٩ .
(٢) انظر : التراجم والسير ٢٦ " بتصرف يسير " .
(٣) محمد كرد علي ٢٤٥ .

وكانت صراحته تلك مجالاً لآراء الدارسين ، في تفسيرها وعزوها إلى أسبابها ، فبعضهم يرى أن اضطراب أحكامه على الناس والحوادث ، جاء بعامل تقدم السن[١] ، ويذهب آخر إلى أن السبب في ذلك ، العجلة والارتجال ، والحدة والانفعال[٢] .

أما جبري فقد حكم عليها بأن فيها « خطأ كثيرا ، وصوابا كثيرا ، وفيها انحرافات كثيرة ، وحقائق كثيرة »[٣] ، وألمح إلى بعض مافيها من التناقض في الأحكام ، وعدّ ذلك من عيوبها[٤] .

ومن وجوه الاتفاق بين كرد علي وجبري ، في هذا الفن ، صراحتهما ، غير أن صراحة كرد علي جرّت عليه ماجرّت ، لكونه أساء إلى كثيرين ، وأما صراحة جبري ، فقد لفتت أنظار الدارسين والنقاد إعجابا وإكبارا ؛ لأنه صرّح بأسرار الفن فقط ، وجاء في هذا الباب بنمط طريف .

ومن وجوه الشبه كذلك ، تضخّم الذات عندهما جميعا[٥] ، وإن كانت نزعة العظمة عند كرد علي أشدّ وأبين .

وعند النظر في طريقة تأليف السيرة الذاتية ، يتقدم جبري صاحبَه ، من حيث التنسيق والترتيب ، واتصال بعض الموضوعات ببعض ، أما كرد علي فإن مذكراته « مواضيع شتى لايربطها هذا العنوان ، ففيها ... كل ماعانى من شؤون وشجون »[٦] ، وربما كان الرابط بين فكرَها ، كونَها مما اتصل بثقافته ، كالتاريخ والاجتماع وعلم الأدب وغيرها ، ولقد أشار جبري نفسه ، إلى أنك لاتجد الحوادث مطّردة فيها ، بل هي خواطر وهواجس[٧] .

---

(١) انظر : الأعلام ٢٠٣ .

(٢) من مقال عن المذكرات ، لمحمد بهجة الأثري ، نشر بمجلة المجمع العلمي العراقي ، ص ٣٥١ ، ج ١ ، من السنة الأولى ، ذو القعدة ١٣٦٩ هـ .

(٣) محاضرات عن محمد كرد علي ١٠٠ " بتصرف " .

(٤) انظر : المصدر السابق ٩٦ .

(٥) انظر رأي جبري حول هذا المعنى في : محاضرات عن محمد كرد علي ٦٠ .

(٦) في المختبر ٢١٩ .

(٧) انظر : محاضرات عن محمد كرد علي ٩٧ .

٣ - **السيرة الغيرية :**

شغف الرجلان بالتاريخ الإسلامي ، وأكبّا على كنوزه ونوادره وبخاصة تراجم الأعلام ، وتأثرا بأساليب مؤلفيها ، غير أنهما وقفا موقف الناقد ، تجاه بعض أنماط الترجمة عند القدماء ، ومن ذلك إطلاق الأوصاف المتشابهة ، على كل من يترجمون له ، فمن قول كرد علي : « وبعض التراجم إذا أزلت منها جملا معينة ، تليق أن تُلبس على جسم أكثر الناس وروحهم »[١]، وكذلك نقد جبري أن يقال : فلان وحيد دهره ، وشمس عصره ، وما إلى هذه الأوصاف العامة ، التي لاتحدد شخصية المترجم له[٢].

ومع أن كرد علي نقد ذلك الأسلوب ، أجده وقع فيه ، حينما ترجم لبعض العلماء ، كقوله : « صحيح الحجة ، وديع النفس ، تام المروءة ، جمّ الوفاء ، سلمت يده من الرشا ، ونفسه من الدنايا ، وعرف كيف يقيم العدل ، ويذهب بعموم الفضل »[٣]، غير أنه لم يستحوذ عليه ، ولعل هذا النمط من تراجمه ، كان في مطلع حياته .

والكاتبان كلاهما يريان أن الترجمة للمرء من خلال إنتاجه ، أصدق وأدق ، فكرد علي يقول : « ترجمة المرء من كلامه أفعل أثرا وأصدق قيلا »[٤]، وعلى هذا المذهب نصّ جبري ، حين أشار إلى أن على الكاتب ، استخراج أكثر أحوال المؤلفين من مؤلفاتهم[٥].

وحين الموازنة بين طريقتيهما في كتابة السيرة الغيرية ، أجد جبري لايتقيد بمنهج محدّد ، بل يطلق لخواطره العنان ، وينطلق معها ، بينما أجد طريقة واحدة ، وقَريبًا متّحدا - غالبا - في تراجم كرد علي ، ففي كتاب (كنوز الأجداد) ، يبدأ بعرض اسم العلم ونسبه ومذهبه وتعلمه مختصرا ، ثم يفصل الحديث في شيء مهم من تراثه ، كإسهابه في الحديث عن الأغاني حين ترجم للأصفهاني ، ثم ينقل نصا يبيّن فيه أسلوبه ، وقد يطيل النقل حتى يستحوذ على صفحتين أو ثلاث[٦].

---

(١) أمراء البيان ٧٦ .
(٢) انظر : الجاحظ معلم العقل والأدب ١٣ .
(٣) كنوز الأجداد ١٥٧ .
(٤) أمراء البيان ٧٦ .
(٥) انظر : أبو الفرج الأصبهاني ٩ .
(٦) انظر : كنوز الأجداد ١٤٨ مثلا .

وفي (أمراء البيان) - وهو الكتاب الذي شهد له جبري بالإجادة فيه [١]- يسلك كرد علي المسلك عينه ، متوسّعاً أو مختصرا ، بحسب شهرة العلم المترجم له وعلوّ شانه ، فالجاحظ استغرق مئة وستين صفحة [٢]، وأحمد بن يوسف الكاتب [٣]، لم يستغرق سوى خمس وعشرين [٤]، وقد يتوقف عند نسبه أو تعليمه أو دينه ، فيحقق ذلك ، ويوازن بين الآراء [٥].

وثمة مشابه من هذه الطريقة عند جبري ، فهو يتناول بعض آثار من يترجم له ، كفعله حين خص كتاب (غرائب الغرب) ، وكتاب (المذكرات) لكرد علي نفسه ، بمزيد عناية وتفصيل ، في محاضراته عنه [٦].

كما أنه يقف موقف المحقق المدقق ، تجاه بعض القضايا ، مثلما فعل في عرضه لقضية نسب المتنبي [٧] .

ومما انفرد به كرد علي ، استكتاب الأدباء والعلماء ليترجموا لأنفسهم ، فعل هذا في كتاب (المعاصرون) ، الذي يمكن عدّه أيضا مذكرات شخصية لمحمد كرد علي ، فكثيرا مايورد وقائع وأحداثا ، حصلت له معهم [٨].

ويتفق الكاتبان في المبالغة - أحيانا - في نعت بعض المترجَمين ، كقول جبري عن الأصبهاني إنه « على رأس الخالدين » [٩]، وقول كرد علي عن الثعالبي [١٠]: إنـــه

---

(١) من مقالته (كرد علي في كتابه أمراء البيان) ص ٣٣ ، المجلة العربية .

(٢) انظر : أمراء البيان ٢٨١ .

(٣) أحمد بن يوسف الكاتب (؟ - ٣٤٠ هـ) من وجوه الكتاب الفصحاء ، اشتهر بمصر ، فولي أعمالا ديوانية في العهد الطولوني ، من كتبه (المكافأة وحسن العقبى) و (سيرة أحمد بن طولون) . (الأعلام ٢٧٢/١) .

(٤) انظر : أمراء البيان ١٩٥ .

(٥) انظر : المرجع السابق ٨٧ .

(٦) انظر : محاضرات عن محمد كرد علي ٨١ و ٩١ .

(٧) انظر : نسب المتنبي ، مجلة المجمع ، ص ٢٨٣ ، ج ٥ ، مج ١٠ .

(٨) انظر : المعاصرون ، الصفحات ١٣٤ و ١٣٥ و ١٥٠ و ٢٠٠ و ٤٢٥ على سبيل المثال ، تأليف محمد كرد علي ، علق عليه محمد المصري ، نشر مجمع اللغة العربية بدمشق ١٤٠١هـ .

(٩) أبو الفرج الأصبهاني ٣١ .

(١٠) الثعالبي (٣٥٠ - ٤٢٩ هـ) من أئمة اللغة والأدب ، صنف كتبا كثيرة ممتعة منها (يتيمة الدهر) و (ثمار القلوب) و (فقه اللغة) . (الأعلام ١٦٣/٤) .

« كان شاعرا عظيما »[١] ، وعندي أن وصف الثعالبي بالشاعر العظيم ، مجازفة يكذّبها الواقع ، « وليس في شعره مايدل على عظمته فيه ، إن (عظيما) ليست مما يوصف به شاعر - شويعر - كالثعالبي »[٢].

ومما أجده عندهما جميعا ، الإفراط في نقل النصوص ، والاكتفاء بالفصل بينها بجمل مختصرة[٣]، بل إن كرد علي يحشد النصوص أحيانا بلا فواصل[٤] ، ويتفقان كذلك في إطلاق أحكام نقدية في خلال الترجمة للعلم[٥].

وثمة تشابه آخر في التمهيد لبعض التراجم ، فقد تناول جبري في مقدمة كتابه عن الجاحظ ، تطور النقد من الجاهلية إلى عصر الجاحظ[٦]، ولعله تأثر بصنيع كرد علي ، حين أفرد في مقدمة (أمراء البيان) خمسا وعشرين صفحة ، للحديث عن البيان العربي من الجاهلية حتى العصر الحاضر[٧].

وبأثر من النزعة الإصلاحية عند كرد علي ، تجده يبث بعض آرائه ، وينقد مظاهر التخلف في الشرق ، كقوله في تضاعيف بعض تراجمه : « الشرقي بعيد عن الإتقان ، يصاب بالملل ، ولاسيما يوم تعرض له مشاكل تحتاج إلى أناة طويلة »[٨]، وفي هذا الرأي مبالغة ، دعاه إليها - بلا شك - حرصه على رقيّ قومه وتقدمهم .

ويتميز كرد علي ، بوجود عنصر القصة في بعض السير التي كتبها[٩]، وهو عنصر مفقود في تراجم جبري إلا ماندر ، ووجوده يضفي على الترجمة حيوية ، ويبعث فيها عنوبة وجمالا .

---

(١) كنوز الأجداد ٢٢١ .
(٢) فوات المؤلفين ٢٨٨ " بتصرف " ، علي جواد الطاهر ، دار الغرب الإسلامي ، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ .
(٣) انظر مثلا : الجاحظ معلم العقل والأدب ، مبحث (معرفة السماع) .
(٤) انظر مثلا : أمراء البيان ٣٩ و ٢٤٠ .
(٥) انظر : كنوز الأجداد ١٥٩ و ١٨٣ - وأحمد فارس الشدياق ٢٠٠ .
(٦) انظر : مقدمة (الجاحظ معلم العقل والأدب) .
(٧) انظر : أمراء البيان ، الصفحة الأولى .
(٨) المعاصرون ١٣٦ .
(٩) انظر : المعاصرون ١٣٤ و ١٣٥ .

أما الاستطراد والإفراط فيه ، فهو سمة اتّسما بها جميعا ، وقد جاءتهما من قبل التأثر بالأقدمين ، إذ لم يستطيعا الانفلات من مناهجهم [١] .

وأجد من الملائم أن أعرض موازنة خاصّةً ، مجملةً بين ماكتباه عن الجاحظ ، لعلها تجمع ماتفرّق في السطور السابقة .

فأما جبري ، فقد ألف كتابا مستقلا عن (الجاحظ) ، وأما كرد علي ، فقد خصه ببحث طويل ، استغرق مايقارب مئة وستين صفحة في (أمراء البيان) ، فهو في الحقيقة كتاب مستقل أيضا .

وبدءاً ، إن الرجلين كليهما معجبان بالجاحظ ، ويريان فيه مثلا أعلى في البيان المشرق ، وقد أوضحت فيما سبق أن المؤلف يُقبِل على السيرة ، التي تثير لديه رغبة ذاتية [٢] ، وهي عند صاحبينا ، الرغبة في إظهار إعجابهما بالجاحظ ، والإشارة إلى أسباب ذلك الإعجاب ، ببسط ملامح عبقريته ، ومظاهر تفرّده .

ولقد شهد جبري لكرد علي ، بالتجويد فيما كتب عن الجاحظ ، ورأى في ذلك « دليلا على امتزاج نفسه بنفس الجاحظ » [٣] ، وقال : « إن الجاحظ في تحليل كرد علي ، كأنه نبش من مدفنه ، وكأنه يعيش بين ظهرانينا » [٤] .

ومن وجوه الشبه بين ماكتباه ، الإطالة في الحديث عن الجاحظ عالماً ، صاحبَ تجربة ، يُعمل عقله فيما حوله من مظاهر الحياة والكون [٥] .

وكذلك عمد كل منهما إلى البدء بحياة الجاحظ الخاصة ، فلخّص جبري حياته إلى وفاته ، وكذلك فعل كرد علي ، حيث أفرد المباحث الأولى لـ (عصره ونشأته ونعمته ومذهبه وأخلاقه ، ثم وفاته) [٦] ، وكان كرد علي أكثر إحاطة ودقة من جبري في هذا العرض .

---

(١) انظر مثلا : الجاحظ معلم العقل والأدب ٥٠ ، وانظر كذلك : فنون الأدب المعاصر في سورية ٧٢ .
(٢) راجع مبحث فن السيرة في الفصل الثالث من هذا البحث .
(٣) من مقالة له بعنوان : كرد علي في كتابه أمراء البيان ، المجلة العربية ٣٤ .
(٤) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .
(٥) انظر : أمراء البيان ٣٥٤ ، والجاحظ معلم العقل والأدب ١١١ .
(٦) انظر : أمراء البيان ٢٨١ .

ومن نَقَدات جبري على كتاب كرد علي ، قوله : إنه غير منسّق [١] ، وهذا رأي مجحف ، ولستُ أظنه أقل تنسيقا من كتاب جبري نفسه ، الذي كان - في الحقيقة - غير دالّ على مضمونه بدقة ؛ لكونه - كما سلف - يستعرض كتاب الحيوان فقط ويُغفل سائر كتب الجاحظ .

أما قوله إن حديث كرد علي عن عصر الجاحظ ناقص ؛ لكونه لم يبيّن صلة الجاحظ بعصره[٢] ، فقد أصاب فيه المحزّ ، وفي رأيي أن هذا الملحظ ، يرد في جميع ماكتب كرد علي من سير في (أمراء البيان) ، على أنه ينبغي التنبه إلى أن علاقة المترجَم له بعصره ، قد ترد في تضاعيف الحديث عن شخصيته ومشايخه وتلاميذه ، ومؤلفاته .

وعندي أن كتاب كرد علي ، أقرب إلى روح البحث العلمي وطبيعته ؛ لكثرة استطرادات جبري وإسهابه حيث يَحْسُنُ الإيجاز ، وانظر مثلا في حديثه عن المعتزلة ، كيف أطال في شرح أمور ، هو في غُنية عنها ، وكيف استطرد إلى ذكر قصص لاتمت للجاحظ بسبب [٣].

وعند موازنة صنيع جبري ، عند حديثه عن مذهب الجاحظ ، بصنيع كرد علي ، أجد هذا الأخير عقد مبحثا سماه (مذهبه وأخلاقه) ، أجمل فيه اعتزال الجاحظ في تسعة أسطر فقط ، وهذا مايحتّمه المنهج الدقيق [٤].

قلت آنفاً : إن الكاتبين أعجبا بالجاحظ ، فألفا عنه ، ولكنّ موقفهما من أدبه وآرائه ، لم يكن واحدا ، وذلك أمر طبعي ؛ لاختلاف الأمزجة ، وتعدّد مذاهب الفكر ، وأكتفي بعرض مثال واحد ، يدلّ على اختلافهما تجاه بعض مذاهب الجاحظ الأسلوبية : فقد نقده جبري لإرساله النوادر والأضاحيك في كتاب الحيوان ، في مواضع ، لاعلاقة لها بتلك الطُّرف ، واتهمه بالرغبة في الإضحاك دونما سبب [٥].

---

(١) انظر : محاضرات عن محمد كرد علي ٧٢ .
(٢) انظر : المصدر السابق ٧١ .
(٣) انظر : الجاحظ معلم العقل والأدب ١٦٣ .
(٤) انظر : أمراء البيان ٢٩١ .
(٥) انظر : الجاحظ معلم العقل والأدب ١٩٨ .

غير أن كرد علي نظر إلى هذا الموضوع ، من وجهة أخرى ، فهو يرى أن إدخال المزاح والمرح « في هذا القالب العلمي ، وتدوينه بالتأليف ، مما لم يعرفه قبل الجاحظ غير أفراد »[١] ، ورأى أنه « إن لم تكن هذه الطريقة من مبتكراته ... فهو منظّم شؤونها ، ومطرّز نصوصها ومتونها »[٢].

ويمكن بعد ذلك القول بأن غرض كرد علي - في تراجمه كلها - التعليم وإظهار محاسن التراث وذخائره ، وتمجيد الأوائل ، وبث الروح القومية[٣]. وكان أول أهداف جبري من تراجمه ، التذوق الأدبي لأساليب أولئك الأعلام ، بعدما أعجب بها ، ورأى روح البيان فيها .

أدب الرحلات :

بدأ الكاتبان رحلتيهما بداية تقليدية ، فذكر كل منهما السبب في هذه الرحلة ، فقال كرد علي : « كان من أعظم أماني النفس .. أن أرحل إلى أوروبا رحلة علمية ... للتوفر على دراسة حضارة الغرب »[٤]، فقصده إذاً الدراسة والاطلاع على معالم الحضارة الأوروبية ، بالمشاهدة والدرس والمقارنة والموازنة ، ليتسنّى له ماندب نفسه له من إصلاح المجتمع وإرشاد قومه[٥].

ولكن لم يكن ذلك هو قصده الوحيد ، فقد صرّح في مذكراته بأنّ من غاياته في رحلاته « تجديد مارثّ من قواه ، وترويض الجسم ، وتسلية الروح »[٦].

وتكاد هذه الغاية توافق غاية جبري ، الذي كانت رحلته إلى أمريكا علمية ثقافية « للدراسة والاطلاع »[٧].

وهذا التصريح بالغرض من الرحلة ، يضع يد الباحث على المضامين المحتواة ، فأما كرد علي فقد لخص جبري مضمون رحلته ، في قوله : « رحلته كلها أوهات وتأوهات... صادرة بعد دراسة واختبار... تدخل على الإنسان كثيرا من النشاط ،

---

(١) أمراء البيان ٤١٦ .
(٢) المرجع السابق ، الصفحة نفسها .
(٣) انظر مثلا : كنوز الأجداد ، المقدمة ص ٧ .
(٤) غرائب الغرب ١/٤ ، محمد كرد علي ، المكتبة الأهلية ، مصر ، الطبعة الثانية ١٣٤١هـ .
(٥) انظر : محمد كرد علي ٦٨ .
(٦) نقلا عن المرجع السابق ٢٤ .
(٧) أرض السحر ٢٢٣ .

وتخلق فيه كثيرا من الهمة »[١] ، فما الذي وجده جبري في هذه الرحلة ، حتى نعتها بهذا النعت المُشْعِر بالإعجاب ؟ .

لقد وجد فيها أدبا وفنا وعلما وتاريخا ، وروحا عربية مسلمة ، كما سيأتي ، ولأنه أيضا وافق شيئا من اهتماماته هو في رحلته .

وقبل أن أسترسل في ذكر ماكان يلفت انتباه كل منهما ، أشير إلى كون الطابع العام لرحلة جبري أدبيا ، بينما كان طابع رحلة كرد علي علميا قوميا ، وتحسن الإشارة إلى مابين عنوانيْ رحلتيهما من اتفاق ، فكرد علي سماها (غرائب الغرب) وجبري سماها (أرض السحر) ، وبين السحر والغرائب صلة وثقى ، وهل السحر إلا إغراب ؟ ! ومعنى ذلك أن كليهما نظر إلى الغرب نظرة المنبهر المسحور ، وسوف يأتي تفصيل ذلك .

إن أظهر خصائص رحلة كرد علي ، تأكيده على الإصلاح الاجتماعي في كل مناسبة تمر به ، كقوله عن مصر : « إن مانخشاه على مصر هو الإسراف الزائد ، وتقليد الغربي على العمياء »[٢] ، ومن مظاهر هذه النزعة ، استنكاره تعاطي المرأة الغربية للصناعة والتجارة ، وغيرها من المهن ، كما استنكر مطالبتها بحقوقها السياسية[٣].

وسرّ ذلك الإنكار الذي شاركه فيه جبري ، ورأى الإفراط في إعطاء المرأة حريتها مدعاةً لكثير من الشرور[٤] ، عائد لما جبلا عليه من المحافظة ، والتأثر بروح الإسلام .

واهتم الكاتبان بوصف الحياة الغربية ، ومظاهر المعيشة ، وحَرَص كرد علي بخاصة ، على وصف مساحات البلدان وجغرافيتها ومامر بها من أحداث ، وقد يورد بعض ماقيل فيها من الشعر[٥] ، وقد انتقده جبري في هذا ؛ لأن الناس - في رأيه -

---

(١) محاضرات عن محمد كرد علي ٨٩ .
(٢) نقلا عن : محاضرات عن محمد كرد علي ٨٤ ، وانظر : محمد كرد علي ٧١ .
(٣) انظر : الرحالون العرب وحضارة الغرب ٢٤١ .
(٤) انظر : أرض السحر ٢١٧ .
(٥) انظر : سلسلة مقالات بعنوان (بين الفيحاء والشهباء) لمحمد كرد علي ، في مجلة المقتبس ، ص ٦٢٦ ، ج ١٠ ، مج ٦ .

يبحثون عن مشاعر الكاتب الخاصة ، ولا يهمهم الحديث عن البلدان على طريقة القدماء[١].

وانتقده أيضا ، في حرصه على بعض الإحصاءات ، كذكر عدد السكان ، وعدد البواخر ... ورأى أن ذلك من فضول القول[٢] ، والحق أن جبري سبق كرد علي في فهم روح العصر ، فيما يتعلق بأدب الرحلة ، لأنه لامجال في هذا الأدب لوصف جغرافية أو سرد تاريخ ، في زمن أصبح العلم بتلك الأمور من البدهيّ ، عند المهتمين بالبلدان ، وصار الاطلاع على تلك الدقائق سهلا ممهّدا ؛ لكثرة ماكتب في جغرافية العالم من شرقه إلى غربه ، في هذا العصر .

ومما تعرض كرد علي لذكره كثيرا ، المكتبات وماحوت من مخطوطات ، وهذا أمر جرى عليه عدد من كتاب الرحلات في القديم والحديث [٣]، إلا أن جبري لم يلتفت له ، ولم يعره كبير اهتمام .

وقد مرّ بالقارئ أن جُلّ عناية جبري ، في رحلته كان مصروفاً لوصف الجامعات والطبيعة ، وهو أمر يشاركه فيه كرد علي ، ولكنه يقصّر فيه عن مداه ، أما العناية بالتاريخ والحضارة ، فقد جلّى فيها كرد علي، وكانت هي الغالبة على رحلته .

فإنه لما وصل إلى فرنسا ، خص اللغة الفرنسية بحديث طويل ، ضمّنه تاريخها وانتشارها [٤]، وأشار إلى تاريخ العلاقة بين فرنسا والعرب[٥] ، وفي أثناء رحلته إلى إسبانيا هاجت به خواطر المجد الغابر ، فوقف وقفة المتأمل المعتبر ، واستعاد تاريخ الأندلس وأمجادها[٦] ، وأشار إلى رغبته - منذ يفاعه - في رؤيتها والتملّي من محاسنها[٧] ، وخص قصر الحمراء بوصف ، امتزج فيه التاريخ بالأدب[٨] ، وظلّ هذا الولع بالتاريخ دأبَه في رحلته كلها .

---

(١) انظر : محاضرات عن محمد كرد علي ٨٤ .
(٢) انظر : المصدر السابق ٨٥ .
(٣) انظر : أدب الرحلة ١٢٣ .
(٤) انظر : غرائب الغرب ٢/٥ .
(٥) انظر : المرجع السابق ٢/٩ .
(٦) انظر : غرائب الغرب ٢/١١٠ .
(٧) انظر : المرجع السابق ٢/١١٤ .
(٨) انظر : المرجع السابق ٢/١٨٥ .

و « يمكن القول إن الرحالة العرب ، وجّهوا القسط الأعظم من عنايتهم إلى طباع الشعوب وأخلاقها وعاداتها »[١]، وهذا مانجده عند كلا الكاتبيْن ، فإن كرد علي ماكان يمرّ بدولة من الدول إلا تعرّض لأخلاق أهلها ، وعاداتهم وطباعهم ، ولذلك قيل عن رحلته إنها معرض جامع لأحوال بضع عشرة أمة[٢].

وكذلك فعل جبري[٣] ، ولكنه لم يبلغ مابلغه صاحبه من العناية بهذا الأمر ، ومما أشادا بـه جميعا نشاط الغربيين وحبهم للعمل ، ومثابرتهم عليه ، وتعاونهم بروح متآلفة[٤]، وخصّ كرد علي شجاعة الغربي في مجابهة الصعوبات ، وصدقه وصراحته ، بمزيد ثناء ومدح[٥].

أما الأمر الذي تجمل الوقفة المتأنية عنده ، فهو مايراه القارئ في رحلتيهما من انبهار بالحضارة الغربية ، يبدو في أشد مظاهره عند كرد علي ، الذي « بلغت دهشته منها كل مبلغ ، بحيث كاد لايرى فيها إلا حسنات »[٦]، ولم يخف إعجابه بها ، وتفضيله إياها على حضارة قومه ، والحكم بأننا عيال على الغرب والغربيين في كل شيء ، وأن علينا أن نستبضع بضاعة العلم من الغرب[٧].

وأدت به نظرته تلك إلى التحسّر على واقع الشرق ، والتأسي عليه ، تجد ذلك في مثل قوله : « فيارب ، ماهذه الروح التي تجرد منها جسم الشرق ، وسرت في عظام الغرب وشراييه ، فأتى أهله بالعظائم ، ونحن بقينا جامدين مبهوتين منحلّين متضائلين »[٨].

وفي المقابل نجد ملامح من هذا الانبهار بالغرب ، عند جبري ، ولكنه كان أقل انفعالا من كرد علي ، وهو يوازن بين حضارتهم ، وواقع العرب ، إذ وقف موقف

---

(١) أدب الرحلة ١٢١ .
(٢) انظر : مطالعات في الكتب والحياة ٢٥٦ ، عباس العقاد ، نشر دار الكتاب اللبناني ، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ .
(٣) انظر : أرض السحر ٦٣ .
(٤) انظر : المصدر السابق ٢٠٠ .
(٥) انظر : الرحالون العرب وحضارة الغرب ٣٦٩ .
(٦) من مقال (ثلاث رحلات) بقلم شفيق جبري ، مجلة المجمع ٣٩٢ ، ج ٣ ، مج ٣٤ " بتصرف " .
(٧) انظر : محمد كرد علي ٦٦ .
(٨) من مقال (ثلاث رحلات) لشفيق جبري ٣٩٢ .

الناقد المتبصّر ، مشيرا إلى ماعندهم من الانحلال في الأخلاق ، والتفكّك في العلائق الاجتماعية ، والاضطراب النفسي [١].

ودعاه تعقّله في النظر إلى حضارتهم ، إلى نقد كرد علي نقدا لطيفا[٢] ، ولكنه مع ذلك اعتذر له ، بأنه « ترك بلاداً في الدرك الأسفل في كل شيء ... ورحل إلى بلاد في المنزلة العليا بالنسبة إلى بلاده » [٣].

ويلتقي الكاتبان في نزعة المقابلة بين الشرق والغرب ، فهذا كرد علي يقابل - مثلا - بين انتشار الصحافة في فرنسا ، وبين بعض بلدان الشرق ، ثم يحكم بانحطاط الشرق ، مما دعا جبري إلى الإنكار عليه ، والحكم بأن هذه المقابلة ظالمة ؛ لأن بلاد العرب ماتزال في بدء يقظتها [٤] ، غير أنه علّل - في موضع آخر - موقف كرد علي ، بأنه « يريد ... استفزاز الشرق لمضاهاة الغرب » [٥].

ومن صور المقابلة بين الشرق والغرب ، عند جبري إلماحه إلى بعض العادات المرذولة عند العرب ، مقرونة ببعض العادات المستملحة عند الغربيين ، وكأنه يتمنى أن يحنو قومه حذوهم [٦] ، غير أن أغلب مقابلاته تأتي تعريضا لاتصريحا .

وأعود ثانية إلى كرد علي ، لأستشهد بنص له ، فيه مايدل بصراحة على شدة انبهاره بالغرب ، وفيه يخاطب باريس قائلا : « سلام عليك مرضعة الحكمة ، وربيبة الرخاء والنعمة ، وروح الانقلابات الاجتماعية والسياسية ... أنت هذّبت طباع البشر » [٧] ، ولو أن رحلة كرد علي تأخرت إلى مابعد ماحدث ، من فظائع الفرنسيين ووحشيتهم في الشام والجزائر وغيرهما ، لنعتها بنعوت غير هذه ، ولما جرؤ على أن يقول إنها هذبت الطباع .

---

(١) انظر : أرض السحر ٩٢ و ١٩١ و ٢٠٤ على سبيل المثال .
(٢) انظر : محاضرات عن محمد كرد علي ٨٦ .
(٣) المصدر السابق ٨٦ .
(٤) من مقال (ثلاث رحلات) ٣٩١ .
(٥) محاضرات عن محمد كرد علي ٨٦ .
(٦) انظر : أرض السحر ٦٣ و ٩٣ .
(٧) نقلا عن : محمد كرد علي ٦٩ .

إن تلك الروح المنبهرة بالغرب - عند كرد علي - والمتشائمة بواقع العرب ، الثائرة على أوضاعهم ، ناتجة - في نظري - عما لقي من عنت واضطهاد ، بسبب مواقفه الجريئة ، وصراحته في طرح آرائه ، مما جرّ عليه إيقاف جريدته (المقتبس) وهربه إلى مصر وأوروبا [١].

بيد أن الاعتراف بفضل الغرب ، وتفوقه السياسي والفكري ، اصطرع والنقمة عليه - في رحلة كرد علي - ولذلك نحس أنه فتّش عما يعزّز وطنه ، ويقلل من فضل الغرب وقيمته ، فقرّر أن أصول الحكم الديمقراطي كامنة في الإسلام نفسه [٢]، وذهب إلى أن المسلمين عرفوا الحرية الفكرية والدينية قبل الغرب ، وطفق يذكر بعض أمجاد العرب ، والصفحات المضيئة في تاريخهم [٣].

وذهب جبري المذهب نفسه ، فبعد أن ذكر عظمة الحضارة الغربية ، أشار إلى أن روحها موجوده في تراثنا ، وأنه يمكننا أن نصل إلى ماوصلوا إليه ، حين نستجمع قوانا المعنوية ، ونستلهم ذلك التراث [٤].

وكان موقف كل منهما من الحضارة الغربية إيجابيا ، فقد دعوا إلى أخذ فضائلها ، والنسج على منوالها ، ونبّه كرد علي إلى نظرة الغرب للشرق ، وقال : « إن الغرب لايريد خيرا للشرق » [٥].

أما جبري ، فلم يصرّح بذلك ، ولكنك تقرأ هذا الرأي له ، من خلال تساؤله عن سر إقامة مؤتمر الثقافة الإسلامية ، في قوله : « هل تحولت سياستها - يعني أمريكا - ... عن المحيط الأطلنطي إلى المحيط الهادئ ، ... هل تريد معرفة هذا الشرق ، ودراسة أوضاعه ، وتمكين الأواصر بينها وبينه ؟ ! » [٦]، ولاريب أن في هذا التساؤل قدرا كبيرا من الشك في نيات من عقدوا هذا المؤتمر ، ولاسيما أنه أشار إلى بعض التهم التي أثيرت فيه ، ضد الإسلام [٧].

---

(١) انظر : مذكرات كرد علي ، فصل (في الهزيمتين) ٨٤/١ .
(٢) انظر : الرحالون العرب وحضارة الغرب ٣٤٦ .
(٣) انظر : غرائب الغرب ١٦/٢ مثلا ، وانظر كذلك : الأدب والقومية في سورية ، ص ٢٢٧ .
(٤) انظر : أرض السحر ٢٦٩ .
(٥) خطط الشام ٩٠/٤ .
(٦) أرض السحر ٢٣ .
(٧) انظر : المصدر السابق ٢٧ .

إن رحلات محمد كرد علي ، وشفيق جبري كأغلب الرحلات في العصر الحديث ، التي « تخلصت .. من التكلف ، واستعادت الحديث المباشر عند أكثر الكتاب ، وارتفعت إلى العذوبة والجمال عند الأدباء »[١].

ويمكن أن أعد رحلاتهما من النوع الفني ، لأنهما عبرا أولا عن انطباعاتهما - مع اختلاف بينهما في ذلك - ولقصدهما إلى الإمتاع والتشويق ثانيا ، ولاعتنائهما باللغة من غير تكلف ثالثا .

وبعد : فإن محمد كرد علي ، يعطي في جميع ماكتب « صورة الباحث الذي يجمع بين نزعة الأدب ، وروح التاريخ »[٢]، وصورة العالم المدقّق ، ذي الثقافة العالية ، والاهتمامات المختلفة .

ثانياً : الموازنة الفنيّة :

كلا الرجلين عالم أديب ، غير أن محمد كرد علي ، صغا قلبه إلى العلم ، فغلبت عليه صفة العالم الباحث ، وهام شفيق جبري في مروج الأدب ، فاستولت عليه صفة الأديب .

تجد عند كرد علي الأسلوب العلمي ظاهرا بيّنا ، يكاد يصير إليه كل إنتاجه ، بدءاً من (خطط الشام) ، و (الإسلام والحضارة الغربية) ، ولكن روح الأديب لاتفارقه ، فتجد له كتابات أدبية ، من رفيع البيان ، تجمع سحر اللفظ ، وعبقرية المعنى ، وجيشان العاطفة ، مثل كتاب (غوطة دمشق) وبعض فصول (غرائب الغرب) و (المذكرات) ، فهو عالم أولا ، وأديب ثانيا .

أما جبري ، فيغلب عليه الأسلوب الأدبي ، حتى في بعض كتبه التي يظن أنها ستنحو منحى علميا ، مثل كتاب (الجاحظ معلم العقل والأدب) ، وفي بعض كتبه ومقالاته يظهر الأسلوب العلمي ، مثل (العناصر النفسية في سياسة العرب) وبعض مقالاته اللغوية ، فهو أديب أولا ، وعالم ثانيا .

---

(١) أدب الرحلة ١٢٧ .

(٢) الأدب والقومية في سورية ٢٢٨ .

ولقد كان لموهبة كرد علي في الكتابة ، أثر في توطيد أركانِ النثر في سورية[١] ، وكانت الخطوة الواسعة في تحرير النثر من قيوده على يديه ، حتى قدر على أن يرد للكتابة رونقها وأصالتها [٢].

وشهد له كثير من الأدباء والنقاد ، بالتقدم في هذا الفن ، حتى قرنه بعضهم بالعقاد[٣] وطه حسين والمنفلوطي ، وعده آخر من الأدباء الخمسة أصحاب الأساليب [٤].

وقال عنه جبري : إنه في مقدمة الكتاب الخالدين ؛ لما رزق من أسلوب تستفيض فيه الحياة [٥]، وإن بيانه « أبرز ناحية من نواحي عبقريته »[٦] .

وعندالبحث عن المصادر ، التي استفاد منها كرد علي هذا الأسلوب ، أجدها تتفق مع مصادر الأسلوب عند جبري ، وهي : -

١ - القراءة العميقة في التراث العربي ، والتمرس بأساليب القدماء .

٢ - العناية بمطالعة كتب الغربيين التي أعطته دقة في التعبير ، ووضوحا في التصوير [٧].

٣ - ممارسة الكتابة الصحفية .

كما أن لإيمانه بقيمة الأسلوب في التأثير ، وتقوية المعنى[٨] ، أثراً في جنوحه إلى التجويد ، والتوفّر على تنقيح كلامه .

ولقد « تدرج كرد علي من تكلف النسج على منوال المتأخرين ، حتى بلغ إلى السهل الممتنع ، وذلك بفضل تمرسه الطويل ، في كتابة المقالة ، والدراسة والبحوث ... فقد كتبها بأسلوب بياني عجيب ، يكاد يختلط بنصوص أمراء البيان الذين

---

(١) انظر : فنون الأدب المعاصر في سورية ٦٧ .

(٢) انظر : المرجع السابق ٧١ .

(٣) عباس محمود العقاد (١٣٠٦ - ١٣٨٣هـ) إمام في الأدب ، من المكثرين كتابة وتصنيفا ، وكان من أعضاء المجامع اللغوية ، وله شعر ، من آثاره (العبقريات) و (ابن الرومي) . (الأعلام ٢٦٦/٣) .

(٤) انظر : محمد كرد علي ٢٠ ، وراجع : المجمعيون في خمسين عاما ٤٢ .

(٥) من مقال يقرّظ فيه كتاب (كنوز الأجداد) ، مجلة المجمع ٢٩٠ ، ج٢ ، مج ٢٦ .

(٦) محاضرات عن محمد كرد علي ١٠١ .

(٧) انظر : المصدر السابق ١٠١ و ١٠٢ .

(٨) انظر : كنوز الأجداد ١٦٤ .

يكتب فيهم ، إشراقا في العبارة ، ووضوحا ودقة ، وسلامة بيان ، وإيجازا في التعبير »[١].

وهذا التدرج في الأسلوب ، من التقليد للسابقين ، وتقرّي نماذجهم ، أمر يقع لكل كاتب ، بل إنه هو أساس الكتاب العظماء ، فهم يجرون مع الناس ، فإذا بلغوا الغاية في التقليد ، اختط كل منهم لنفسه طريقا ، ومن هنا تبدأ العبقرية .

وشفيق جبري مشمول بهذا الحكم أيضا ، فقد كان في مطلع أمره ، لايخرج عن أساليب المتقدمين ، بل إنه لينقل الألفاظ والتراكيب أحيانا ، كقوله في ذم الانتداب : « حتى افتتح علينا أبواب المظالم ، واحتلب فينا ضرعي الدنانير والدراهم ، وحتى افتقر الأغنياء ، وانكشف الفقراء »[٢]، وأقرّ هو بكون هذا الأسلوب منقولا عن القدماء ، وقال إنه « ليس من نمط كلامي ... وأظن أني استعرته »[٣].

السمات الأسلوبية المشتركة :

وهذا التقليد للسابقين ، يقودنا إلى السمة الأولى المشتركة ، بينهما ، وهي :

١ - التأثر بأساليب القدماء :

وكان كرد علي أكثر تقيّداً بها[٤]، وتأثّراً بأنماطها ، بشهادة جبري نفسه[٥]، وكلاهما جمع في أسلوبه الجزالة والمتانة اللغوية ، شأن القدماء[٦].

٢ - البديع :

حَرَص كرد عليّ ، على تزيين كلامه بهذه الحلية البديعية ، من غير إفراط ، يذهب برونق المعنى ، أو يؤدي إلى التكلف ، وفرق مابينه وبين جبري ، أن هذا الأخير زهد في البديع بأنواعه ، في كتاباته المتأخرة ، أما كرد علي ، فقد ظل يحلّي كلامه به .

---

(١) من مقدمة د . سامي الدهان لـ (أمراء البيان) صفحة (ض) .
(٢) أنا والنثر ١٠٥ .
(٣) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .
(٤) انظر : اتجاهات النقد الحديث في سورية ١١٤ .
(٥) انظر : محاضرات عن محمد كرد علي ٧١ .
(٦) انظر : النثر الأدبي الحديث في سورية ٣٧٥ .

ومما جاء مسجوعا من كلام كرد علي ، قوله : « أنعشني هواؤها ، وأدهشتني أرضها وسماؤها »[١]، وما أقربه من قول جبري عن الوطن : « حضنته أحشاؤه ، وأظلته أفياؤه ، وغذاه هواؤه وماؤه »[٢].

ومما جمع جناسا وسجعا ، قول كرد علي : « لو جاء في عصرنا الرحالة ابن حوقل ، وشاهد مدنية فرنسا لحوقل واسترجعْ ، وقال : هذه حضارة ليس لنا في وصفها مطمعْ »[٣]، وأحسبه لم يخص ابن حوقل[٤] بالذكر ، إلا لتصيّد الجناس ، وهو ماخشي منه جبري ، ورأى فيه خروجا بالكلام عن الطبع إلى التصنّع[٥].

وإذا كان كرد علي متكلفا في النص السابق ، فإنك تجده منقادا إلى الطبع ، في قوله : « همت بسِحْرها في سَحَرها ، وبشمسها تأفل وراء شجرها ، وراقني وابلها وطلّها ، وندَاها وضبابها »[٦]، وقوله في هذا النص الذي جمع جناسا وسجعا وطباقا : « تربة تقبل وتمحل ، ... وجداول تفور وتغور ، وآبار تفيض وتغيض ، وجو يغيم ويصحو ، ونوّ[٧] يعبس ويضحك ، وهناك هناءة وهناك يسر ، وهناك شقاء وهناك عسر »[٨]، وليس بخاف ثقل قوله : وهناك هناءة وهناك يسر ، لتوالي المتشابهات .

واستمع إلى قوله - وقد حرص على المقابلة بين الجمل - : « حزنت على الغوطي عبدا ، وفرحت له حرا ، آلمني عبوسه وتشاؤمه ، وسرني ضحكه واستبشاره »[٩].

وانظر في قوله أيضا ، يصف المتحذلقين في الدين : « يراوغون ويماحكون ، واكسون ماكسون ، مدلّسون موالسون ، يعادون مايجهلون ، يجمدون على مايعرفون

---

(١) غوطة دمشق ١٩٩ .
(٢) من مقالة (الحنين إلى الأوطان) ، مجلة المجمع ٢٦٣ ، ج ٩ ، مج ١ .
(٣) غرائب الغرب ١/٤٥ .
(٤) ابن حوقل (؟ - بعد ٣٦٧ هـ) رحالة ، من علماء البلدان ، كان تاجرا ، رحل من بغداد ودخل المغرب وصقلية ، وجاب بلاد الأندلس ، ويقال : كان عينا للفاطميين ، له كتاب (المسالك والممالك) . (الأعلام ٦/١١١) .
(٥) انظر : أنا والنثر ١٢ و ٢٠ .
(٦) دمشق مدينة السحر والشعر ١٤٥ .
(٧) النوّ : الفلاة الواسعة ، وقيل المستوية من الأرض (اللسان) .
(٨) غوطة دمشق ١٩٩ .
(٩) المصدر السابق ٢٠٢ .

يصانعون ولايتلطفون ، يفتنون وهم لايعلمون ، يجتهدون ويخطؤون ، يهرفون بما لايعرفون .. »[١] .

ثم قسه بقول جبري : « إنها مدينة جبارة ، فهي نظيفة قذرة ، موحشة مؤنسة ، عظيمة صغيرة ، هادئة صاخبة ، ساكنة متحركة »[٢]، تجدْ شبهاً بين النصين ، من حيث وجود البديع في كليهما - وهو الجناس والسجع في الأول ، والطباق في الآخر - ، ومن حيث توالي الأوصاف بلا عطف ، ومن حيث قِصَر الجمل ، غير أني أجد في نص كرد علي شيئا من التكلف .

٣ - تقطيع الجمل :

وله دور في إثراء الموسيقى داخل النص ، وهو أقرب إلى البديع ، ومن نماذجه الكثيرة عند كرد علي ، قوله : « حملة أهواء ، لاحملة شريعة ، وجعاب لغو وحشو ، ... سلاحهم المغالطة ، ومجنّهم السفسطة »[٣]، وقوله : « وبذلك أصيبت العقول بالضعف ، والقرائح بالركود ، والحضارة بالرجوع »[٤]، وقوله : « في ربوعها شهدت الطبيعة تقسو وتلين ، وتغضب وترضى ، وتشح وتسمح ، فراعني جمالها وجلالها ، وشاقني تجنيها ووصالها »[٥].

ولقد كان جبري مولعا بهذا اللون من الكلام ، وعنده أنه يمهد للقارئ ، ويمنحه نصيبا من الراحة[٦] ، وهو رأي جيد صادق ، ويمكنك تأمل صحته في قول جبري : « أعطته صورا هامدة فأحياها ، وأرواحا جامدة فحرّكها ، وألوانا كامدة فصفاها »[٧].

---

(١) القديم والحديث ٥٩ ، والوكس : النقص ، والموالسة : الخداع (اللسان) .
(٢) أرض السحر ٢٠٣ .
(٣) القديم والحديث ٥٩ .
(٤) أقوالنا وأفعالنا (نقلا عن محمد كرد علي ، للألوسي ٢٣٢) .
(٥) دمشق مدينة السحر والشعر ١٤٤ .
(٦) انظر : الجاحظ معلم العقل والأدب ٢٥٨ .
(٧) من مقالته عن رواية (سيد قريش) مجلة المجمع ١٢٦ ، ج ٢ ، مج ١٠ .

٤ - الترسّـــل :

يعد هذان الكاتبان ، من المطبوعين الذين لايتكلفون القول ، بل يرسلونه على السجية ، وقد بيّن كل منهما أنه لايكتب إلا مايشعر به ، وأنه لايستدعي المعاني استدعاء[١].

ولقد شُهر كرد علي بأسلوبه المترسّل ، حتى عُدّ مزاحماً في بيانه الفحولة الأولين[٢]، فمن كلامه في وصف أسلوب القرآن : « أما أسلوب القرآن فهو فوق كل أسلوب ، وأسمى من كل كلام ، لم يعهد العرب مثله في نظام القول وترتيبه ، وما استطاعت على كثرة فصحائها في دهر نزوله ، أن تحتذي مثاله في أسلوبه ، وأداء معانيه »[٣].

وارجع الطرف في قوله : « ونشأت ناشئة ، لم تدر من العلم الحقيقي غير قشوره ، شربت مصة من مورده ، ظنتها غاية مايرتوي به المرتوون ، وراحت تعد المروق غاية النور ، والإزراء على النبوات من آيات الحكماء »[٤].

إنك تجد في ذلك النص ، الوضوح ، وانسياب الألفاظ الدالة على معانيها ، البعيدة عن التكلف ، ومما يشبه هذا من كلام جبري ، قوله : « فإذا لم يُخلق الرجل شاعرا ، ... فعبثا يحاول أن يكون شاعرا بالصنعة وحدها ، بالألفاظ الخالية من كل روح ، بالصور المجردة من كل حياة ، بالعاطفة المحرومة كلّ صدق »[٥].

ولاشك أن مثل هذا الأسلوب ، البعيد عن الصنعة ، المنطلق من الطبع ، والذي نهَجه هذان الكاتبان ، هو مايطلبه أدبنا الحديث ، في منأى عن تكلفات المتأخرين ، وغموض المتنطّعين وهرطقاتهم .

ولابأس في أن أشير إلي أن (مذكرات كرد علي) قد حظيت بثناء كثير من الكتاب على أسلوبها ، الذي أشبه « الأسلوب المقفّعي ، قصا وتعبيرا ، فالإنشاء ساذج عاطل ، لاتزيين فيه ولاتجميل »[٦].

---

(١) انظر : المذكرات ٣١٥/١ ، ومقدمة شفيق جبري لرواية (الأزاهير الحمر) ١٢ .
(٢) انظر : فكر ومباحث ١٦٥ .
(٣) أمراء البيان ٥ .
(٤) القديم والحديث ٢٣ .
(٥) أحمد فارس الشدياق ٢٢٤ .
(٦) في المختبر ٢٢٠ .

ولكن بعض الأدباء ، الذين هاجمهم كرد علي في مذكّراته ، نقدوه نقدا عنيفا - بدافع الانتقام لأنفسهم ، والرد بالمثل - فهذا أحمد أمين [١]، يصف أسلوبه بأنه « متعثر ليس فيه رونق أو صفاء »[٢] ، ويرى في المذكرات « قلة في الذوق ، وسخافة في الحكم »[٣] ، ويحكم بأنها « لم تصدر إلا بخذلان من الله كبير »[٤]، وهذه أحكام واضحة التحامل ، لا يعتدّ بها ولاينظر إليها .

٥ - اللغة الشعرية :

يلتقي الكاتبان في الميل إلى لغةالشعر ، التي تبعث في النثر حياة ، وتضفي عليه جمالا إلى جمال ، غير أن تجلية جبري في هذا المجال أظهر وأكثر ؛ لكونه شاعرا في المقام الأول ، ولأن أكثر كتاباته تنحو المنحى الأدبي ، أما كرد علي ، فلم يمل في أكثر ماكتب إلى اللغة الشعرية ، « لأن الموضوعات التي خاض خضمها ، إنما هي موضوعات العقل ، لا موضوعات العاطفة »[٥].

ومن أسباب انصراف كرد علي عن هذه اللغة ، كونه يركّز على المعاني ، فغلب عليه الطابع العلمي ، والأسلوب الدقيق البعيد عن العاطفة [٦]، غير أنك لاتعدم أن تجد له كتابات ذات طابع أدبي بحت ، كما سيأتي .

وإجادته في اللغة الشعرية ، تظهر حين يكون في مقام التعبير عن آلامه وآماله الذاتية ، حيث تجد إشراق اللفظ ، وهدوء التعبير[٧] ، كقوله في خطاب نفسه : « يانفس ، الحق مرّ ، والصادع به معذّب ، وصاحبه أبدا هدف لطعن الطاعنين ... ولايكرثنّك هذا ... أنت يانفس لم تَحسدي وحُسدتِ ، ولم تشمتي وشُمت بك ... »[٨]. « يانفس ، هوذا الحادي يهيب بك لاجتياز المرحلة الأخيرة ،

---

(١) أحمد أمين (١٢٩٥ - ١٣٧٣هـ) عالم بالأدب ، غزير الاطلاع على التاريخ ، من كبار الكتاب ، كان من أعضاء المجامع اللغوية ، من آثاره فجر الإسلام وحياتي . (الأعلام ١٠١/١) .

(٢) فيض الخاطر ١٢٨/٨ ، أحمد أمين ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ط الثانية ١٩٥٨م .

(٣) المرجع الساق ١٢٩/٨ .

(٤) المرجع السابق ١٣٣/٨ .

(٥) محاضرات عن محمد كرد علي ١٠٢ .

(٦) انظر : صفحات مجهولة من الأدب العربي المعاصر ٧٤ .

(٧) من مقال (دراسة نقدية لأسلوب محمد كرد علي) لأبي بكر الكدلوندي ، مجلة المجمع ٣٦٢ ، ج٢ ، مج ٦١ .

(٨) مذكرات محمد كرد علي ٦٥٢/٢ . وأكرثه : شق عليه (اللسان) .

دَرَاكِ ، وخِفّي في خِفٍّ من أثقالك للّحاق بمن تقدموك من الأهل والعشير ، فالوقت ضاق ، وأنتِ على أوفاز »[١] .

إن هذا النمط الشاعريّ الهادئ من الكلام ، يكثر في المقالات التأملية ، وبخاصة مايكون منها مقولا في سن متقدمة ، إذ ترقّ العواطف ، وتصفو الأحاسيس ، وتنصرف النفس إلى بث آلامها ، بعيدا عن التزويق اللفظي ، وأكثر نصوص كرد علي التي تُسلك في ضمن هذا النمط ، مما قاله في عشر الثمانين .

ثم إنّ الميل إلى اللغة الشعرية ، « ظاهرة طبيعية مادامت تؤدي معنىً انفعاليا »[٢]، ولو أنك فتّشت عن المعاني التي تضمنتها تلك النصوص ، لوجدتها تصدّق هذا الحكم وتعضده ، فقول كرد علي مثلا : « لياليَ الأنس في جزيرة الأندلس، وأيامها الغرّ في سالف الدهر ، فيكِ قامت سوق الآداب ... وكمل في ربوعك الذوق العربي »[٣] ، يتضمن الحسرة على مامضى من المجد في الأندلس ، فجاء الأسلوب على هذا النمط الشعري .

وكذلك قوله أيضا : « وداعا غوطة دمشق الفيحاء ، مجلى الطبيعة ومغنى الأنس ، وروضة الطيبات ، ومهبط التجليات ، سلامٌ زكي كتربتك المسكية ، وجمال بسطك السندسيّة » ، فهو في موقف وداع ، أملى عليه اتخاذ هذا اللون البديع من النثر ، ولقد وصف جبري هذا المقال بأنه كله شعر[٤].

ومن نصوص جبري التي يمكن مقارنتها بذلك النص ، قوله في إحدى رحلاته : « سلام على جنيف ، سلام على هدوء شوارعها ودورها ، سلام على هذه الدور التي تظللها شجرات جرّدها الخريف من ورقها الأخضر ، فتناثر ورقها الأصفر من جميع جوانبها »[٥].

غير أني أجد انفعالات كرد علي أصدق ، وعاطفته أشد ضراما ؛ لأنه يودع أرضه ومرتع صباه .

---

(١) المصدر السابق ٦٤٩/٢ . وعلى أوفاز : أي على سفر (اللسان) .
(٢) الأسلوب ٦٦ .
(٣) غرائب الغرب ١١٥/٢ .
(٤) من مقال (شامية كرد علي) مجلة المجمع ، ٤٨ ، ج١ ، مج ٥٢ .
(٥) أنا والنثر ٩٠ .

ومن آثار اللغة الشعرية في كلام كل منهما ، تحليتُهُ بالتشبيهات والاستعارات ، ولقد عَرَف القارئ أن أغلب تشبيهات جبري مبتكرة جديدة ، وذلك مما يحمد له ، كتشبيه القطار الملتوي على شفير الوادي بحافر الفرس [١] ، كما أن تشبيهاته كثيرة ، يعمد إلى تزيين قوله بها غالبا .

أما كرد علي ، فإنه يأتي في مرتبة أقل ، من حيث الكثرة والابتكار ، فمن تشبيهاته ، قوله في حديث له عن بعض مقالات معاصريه « .. تتساقط كما يتساقط ورق الشجر في الخريف » [٢] ، وهذا كما ترى تشبيه تقليدي ، لافضيلة له فيه .

ومن تشبيهاته الجيدة ، التي أغنت عن الإطالة في الكلام ، قوله - بعدما ذكر عادة شهر العسل ، وأنها محاولة أخذ قسط من الراحة ، قبل الدخول في معترك الحياة الزوجية - « فما أشبه الحياة ومافيها من الراحة والتعب بإناء مفعم من الصَّبِر قد بسط على وجهه قليل من العسل » [٣] .

وهما يعمدان إلى طرح الفكرة ، ثم تقويتها بتشبيه تمثيلي [٤] ، كقول كرد علي : « على أنه لم تحمد عودة تلك العلوم الدنيوية ... لما نتج عنها من حركة تشبه حركة صائم ، أخذ منه الجوع ، فلم يجد مايطعمه ، حتى ساقته الأقدار إلى مائدة موسر ، وقد حوت ماطاب وحلا ... فأخذ يلتهم ماوصلت إليه يده ... ويمزج حاره ببارده ، وحلوه بحامضه » [٥] .

وهما في هذا الضرب كفرسيْ رهان ، إذ تجدهما ذويْ حرصٍ على إيضاح فكرَهما به ، وعلى تجويده والعناية بجعله يطابق المعنى في أوضح لفظ وأرشقه .

ومن الاستعارات البديعة عند كرد علي ، قوله : « وعلى كثرة ماحرصنا عليه من الاحتكاك بأبناء الغوطة ، للوقوف على ماسكتت عنه الدفاتر » [٦] ، والبلاغة متجمعة هنا في سكوت الدفاتر .

---

(١) انظر : أرض السحر ٩٩ .
(٢) القديم والحديث ١٠٣ .
(٣) خطط الشام ٢٨٨/٦ .
(٤) راجع بعض الأمثلة من كلام جبري في مبحث (أسلوبه) في الفصل الثالث .
(٥) القديم والحديث ٢٣ .
(٦) غوطة دمشق ٦ .

ويلتقي الكاتبان في اتخاذ اللغة الشعرية حتى في بعض المقالات النقدية ، التي يوجب بعض النقاد إخلاءها من غير الأسلوب العلمي ، ويرى في مزج الشعر بالعلم خلطا واضطرابا ، لايليق بالكاتب البليغ [١]، وعندي أن هذا حجر وتضييق ، ولامانع من استخدام شعرية اللغة في النقد والعلم ، مالم يؤد إلى الغموض المذموم .

وما أجمل قول كرد علي ، في حديثه عن بعض تأريخ الأدب : « هجم السجع هجوما مريعا على الكلام المرسل ، فأضعف من قواه ، ونال من قوامه بعد القرن الرابع »[٢]، وقوله : « وفي منثور المعري نشوفة ويبوسة »[٣] ، وكذلك : « فكأن ألفاظ ابن المقفع منخولة في منخل دقيق ، نُفي الزؤان[٤] مما يحمل »[٥].

ومثل ذلك في قول جبري مقرّظا كتابا : « هجم فيه الكاتب على خضم من المذاهب ، بشيء من الجرأة ، فبقي في أكثر هجماته على الساحل خوفا من الغرق »[٦] .

وعندي أن الكاتبيْن وفّقا كلَّ التوفيق ، في مزج اللغة الشعرية بالعلم ، وهما - من هذه البابة - مجدّدان ، ولعل اتخاذهما هذا النهج ، من دواعي عدّهما من كبار الأدباء .

تبقى الإشارة إلى بعض المواضع ، التي تميّز بها كرد علي ، مثل القدرة على الاستفادة من الجملة القرآنية ، تضمينا واقتباسا ، حيث يُحسن اختيار الموضع الملائم . فتأتي جُمله مشرقة ، ضاجّة بالحياة ، كقوله : « تصبح بالذؤب حدائق غُلبا »[٧] ، وقوله : « فلما ناداهم حادي الرحيل ، تخلوا عن مصانعهم ... كأن لم يغنوا فيها »[٨].

---

(١) انظر : الأسلوب ٩٧ .
(٢) أمراء البيان ١٨ .
(٣) المصدر السابق ١٩ .
(٤) الزؤان : رديء الطعام (اللسان) .
(٥) أمراء البيان ٩٢ .
(٦) من تقريظه لكتاب (في دولة الأدب والبيان) ، مجلة المجمع ١٢٢ ، ج ٢/١ ، مج ١٢ .
(٧) دمشق مدينة السحر والشعر ١٤٥ .
(٨) المصدر السابق ١٤٧ .

ومن مزاياه التي تفرّد بها أيضا ، كثرة الاستشهاد بالشعر ، وبخاصةٍ في كتب التراجم والتاريخ [١]، ولعله شَعَر بحاجة أسلوبه فيها إلي التطرية ، فاستنجد به .

كما أن حدة مزاج كرد علي ، وعصبيته طبعت أسلوبه بطابعها ، على خلاف ماعليه أسلوب جبري ، المتّسم بالهدوء والاتزان في أغلبه .

ومن مواطن الاختلاف بينهما ، كون أسلوب جبري ذا مستوى واحد - من حيث الجودة - ، حتى لتكاد تنسبه إليه أول وهلة ، ويندر أن تجد فيه ضعفا ، ولكن أسلوب كرد علي يتفاوت جزالة وقوة وضعفا وركاكة [٢]، وقد لفت هذا التباين نظر جبري نفسه ، فقال : « إن كرد علي يرتفع في بعض مواطن من كتاباته إلى منازل البلغاء المتقدمين ، ثم ينخفض إلى مراتب دون مراتبهم ، ثم نراه ... يساير الأخباريين في الصحف ... فليس له نمط واحد في الإنشاء » [٣]، وأكثر مايعتور الضعف أسلوبه في مقالات المقتبس ؛ لكونه يضطر أحيانا إلى الكتابة لملء فراغها ، وقد صرّح بتبرّمه من الكتابة الصحفية ، ورغبته في التأليف الجاد [٤] ؛ لشعوره فيما يظهر بما ينتاب أسلوبه من ضعف .

ومما تفرّد به جبري ، الاتّكاء على الأساليب الإنشائية ، كالاستفهام والتعجب والأمر، وحرصه على إشراك قارئه في الحكم [٥]، وفي رأيي أن اعتماد هذه الأساليب ، دليل على غلبة التواضع .

أما كرد علي ، فإن تعاليَه ، وإحساسه بالتميّز عن الآخرين ، دعاه إلي إيثار الأساليب الخبرية ، وحتى لاأغمطه حقه ، أقول : ومما دعاه إليها كذلك ، أن جُلّ مؤلفاته ذات صبغة علمية .

ومن مواطن الاتفاق بينهما ، أسلوبيا ، الإطالة في النقل [٦]، والاستطراد في كتب التراجم بخاصة [٧].

---

(١) انظر مثلا : كنوز الأجداد ١٢٢ ، ودمشق مدينة السحر والشعر ٨٦ .
(٢) للتمثيل على الأسلوب الضعيف عنده ، راجع : القديم والحديث ٢٤ مثلا .
(٣) محاضرات عن محمد كرد علي ١١١ .
(٤) انظر : محمد كرد علي ١٦١ .
(٥) راجع نماذج ذلك في مبحث أسلوبه ، في الفصل الثالث .
(٦) انظر مثلا : أحمد فارس الشدياق ٩٠ ، وكنوز الأجداد ١٩٢ .
(٧) انظر مثلا : أحمد فارس الشدياق ١٢٨ ، والمعاصرون ١٥٠ .

ومما التقيا فيه ، استخدام جمل وألفاظ بعينها ، مثل : سجيس الليالي ، وامتد بي نَفَس الكلام ، وغيرهما ، ومن الأنماط التي اتفقا فيها ، أن تُختَم المقالة أو الموضوع بجملة : (والخلاصة كذا وكذا) غالبا .

ويلتقي الكاتبان أخيرا في جزالة اللغة ، وقوتها ، ولقد عرف القارئ من قبل ، أن من أظهر خصائص أسلوب جبري ، حرصَه على روح اللغة ، وتمثّلَ ذلك في انتقائه الألفاظ الجزلة ، والولع بأسلوب التعدية بالحرف ، وإحياء فصيح العامة[١] ، وهذا الأخير مما تميّز به .

ولو رجعت الطرف في لغة كرد علي ، لوجدته غير بعيد عن صاحبه ، فقوة لغته ، وجزالتها ، مما أثار إعجاب كثير من الدارسين [٢]، وقد ثقف هذه اللغة العالية – كما ثقفها صاحبه – من التمرس بأساليب القدماء ، والتوفر على دراسة اللغة والتعمق فيها .

استمع إليه في ترجمة عبدالحميد الكاتب ، يقول عنه :« تخرج في الكتابة بسالم مولى هشام »[٣]، وفي موضع آخر يقول :« يتخرج بها طلاب الأدب من العرب ، على غابر الحقب »[٤]، ويقول عن حافظ إبراهيم : « يتنادر إلينا ونتنادر إليه »[٥] ، فلله ما أحلى هذه التعديات ! وما أفصحها ! ، وإنها لتذكّر بأسلوب جبري ، الذي شغف بمثلها ، وألحّ على تحسين كلامه بها .

وهما بعيدان عن الغموض ، غير راغبيْن في استخدام الكلمات الغريبة ، إلا أن بعض النقّاد رأوا في لغة كرد علي شيئا من الغرابة ، وانتقدوه لاستخدامه مثل : « سجيس الليالي » و « شق الأبلعة » ، ونعَوْا عليه الانصراف عن الكلمات المألوفة الصحيحة ، كجمع مفتي على (مفاتي)[٦] ، ومنهم العقاد الذي تعقّب بعض هناته اللغوية في (غرائب الغرب)[٧].

---

(١) راجع مبحث أسلوبه في الفصل الثالث .
(٢) انظر : فوات المؤلفين ٢٨٧ و ٢٨٨ .
(٣) أمراء البيان ٣١ .
(٤) القديم والحديث ٨٧ .
(٥) المعاصرون ٢٠١ .
(٦) في المختبر ٢٢٥ .
(٧) انظر : مطالعات في الكتب والحياة ٢٥٨ .

وأعود مرة أخرى ، قائلا : إن هذين الكاتبين يعدّان من كبار الأدباء ، ليس في الشام فحسب ، ولكن في البلاد العربية بعامة ، ووجوه الشبه بين أدبيهما أكثر من وجوه الاختلاف ، وهما – على كلٍّ – ممن انعتقت الأساليب النثرية في هذا العصر ، على أيديهما ، من بهارج الصنعة ، وتزويق المتكلّفين .

obeikandl.com

٢ - آراء الدارسين والنقاد

حظي شفيق جبري بعناية كثير من الدارسين ، فاهتم بعضهم بشعره ، والتفت كثيرون إلى نثره ، رأى فيه بعض النقاد شاعرا كبيرا ، وأعجب بعضهم بكونه ناثرا مجيدا ، ولاغرو ، فقد جمع هذا الأديب هذين الفنين ، حتى استحق لقب (رجل الصناعتين) ، وقلما اجتمع النثر الجيد والشعر الجيد لرجل ، في تاريخنا الأدبي .

ولاشك في أن النقد حكم على الأدب ، « يبنى على مقدمات وتبريرات موضوعية لاذاتية »[١] ؛ ولذلك سأضرب صفحا عن الوقوف ببعض كلمات الاستحسان ، التي كانت تقال عن شعر جبري ونثره ؛ لكونها بنت ساعتها ، وليست نقدا بمعناه الاصطلاحي ، الذي هو « تقدير النص الأدبي تقديرا صحيحا ، وبيان قيمته ودرجته الأدبية »[٢].

ومن تلك الكلمات الاستحسانية ، قول حافظ إبراهيم له : « لك جملة من الألفاظ عجيبة ، منها قولك زحف السنين »[٣]، وقول الرصافي ، بعدما سمع منه قوله : (وثب الردى والليل لائل) : « إن هذا الشعر لايتأتّى لصاحبه إلا بعد عشر سنين أو خمس عشرة سنة »[٤].

وأغلب الظن ، أن مثل تلك الآراء ، تأتي للمجاملة والتقريظ ، ولذا لم أر إطالة الوقوف بها .

ولقد كفاني جبري نفسه مؤونة ردّ تلك الأقوال ، التي تنظر بعين الرضا فقط ، في قوله : « وإذا الناقد لم ينظر إلى الشاعر من جميع الوجوه ، من وجه الحسنات ، ومن وجه السيئات على السواء ، لم يكن نقده نقدا ، ولاتمييزه تمييزا »[٥].

ومن النقد الذي لم أبال به ، مايدخل في الأوصاف العامة ، التي يمكن إطلاقها على غير واحد ، كقول بعضهم عنه ، إنه « أديب بحاثة ، وشاعر عبقري ، وناقد أدبي

---

(١) العمل الأدبي بين الإبداع والأداء ٥١٧ .
(٢) أصول النقد الأدبي ١١٦ .
(٣) أنا والشعر ٩٧ .
(٤) المصدر السابق ٩٨ .
(٥) (هل كان المتنبي شعوبيا) ص ٣٣١ ، بقلم شفيق جبري ، مجلة المجمع ، ج ٦ ، مج ١٠ .

موجه »[١]، وليست العبقرية في الشعر ، مما يصح نعت جبري بها - في نظري - وقول آخر عن شعره : إنه حسن السبك صافي الديباجة[٢]، وهذه الألفاظ في نعت الشعر ، مما بَلِيَ لكثرة مارددّه الكتاب منذ القديم ، مع مافي معانيها من المراوغة .

وأغفلت كذلك كثيرا من الكلمات ، التي وصفت شعره بالروعة البالغة[٣] ، أو نعتَتْه بأنه من كبار الأدباء الذين ظهروا في هذا العصر[٤] ، لكثرتها وتشابهها ، وخروجها عن النقد الجاد المعلّل ، وكذلك فعلت مع كلمات الثناء التي تتجاوز الحد المقبول ، وتصل إلى المبالغة المرفوضة ، كوصف أحدهم بعض جمله بأنها من جوامع الكلم[٥].

ويحسن بي أن أقف عند بعض ماقيل ، عن كتابيه عن المتنبي والجاحظ ، فقد كادت آراء الأدباء تتفق على كونهما كتابين فريدين في بابهما ، ومما قيل عن كتاب (المتنبي مالئ الدنيا وشاغل الناس) : « إن الكتاب قد سدّ فراغا كبيرا ، وسلك منهَجا مبتدعا مجديا ... وكان موفّقا كل التوفيق في نظراته وغالب أحكامه »[٦]. ومن أسباب الإعجاب به ، كونه « أدخل .. على أدبنا معاشر العرب أسلوبا جديدا ، اقتبسه من أكابر أدباء الفرنجة المعاصرين ... ولكنه شذّبه وهذّب حواشيه ، حتى أصبح عربيا لاتشوبه عجمة »[٧]، وعدّه بعضهم مرجعا ممتازا لمن أحبوا هذا الشاعر ، ولمن أبغضوه في وقت معا[٨]، لكونه تعمق في درس نواحي عبقريته ، ولم يُغفل الإشارة إلى بعض مثالبه .

---

(١) أعلام الأدب والفن ١٤٤ .
(٢) انظر مثلا : الموسوعة الموجزة ٤١ .
(٣) انظر مثلا : الأدب والقومية في سورية ٢٧٢ .
(٤) انظر : وحي الرسالة ٢١٣/٣ ، أحمد حسن الزيات ، مكتبة نهضة مصر ، الطبعة الثالثة ١٣٨٠هـ ، وانظر كذلك : فارس الخوري وأيام لاتنسى ٤٦١ .
(٥) انظر : فصول في اللغة والأدب ١٣٤ و ١٤٧ .
(٦) مجلة المقتطف ، جمادى الآخرة ١٣٤٩هـ ، ص ٤٦٦ ، ج٤ ، مج ٧٧ ، من تعريف المجلة بالكتاب .
(٧) نقلا عن : أنا والنثر ، حاشية ص ٨٦ .
(٨) من مقال (الموضوع الواحد) بقلم سعيد الجزائري ، جريدة تشرين ، العدد الصادر في ١٣ نيسان ١٩٧٧م ، ص ٥ " بتصرف " .

أما كتابه عن الجاحظ ، فقد رأى فيه بعض النقاد والأدباء ورجال الفكر ، مالم يروه في الكثير من الدراسات [١]، حتى لقد وُصِفَ بأنه خير كتاب أخرج عن الجاحظ للناس[٢] .

وفي نظري أن الاحتفاء بهذا الكتاب ، على ذلك النحو ، لم يكن في وضعه الصحيح ؛ لما فيه من النقص والاضطراب في المنهج ، وعدم الدقة في العنوان .

ومن أصدق ماقيل عن جبري في كتابه هذا : إن مما « يلاحظ على الكاتب ميله إلى الانفراد بالفكر ، وبعده عن التقليد الأعمى ، والجري على أساليب التعبير التي ألفها أكثر المؤلفين »[٣].

أما آراء الدارسين والنقاد ، التي يجمل الوقوف بها ، منسوبةً لقائليها ، فهاكها مرتّبة كما يلي :

١ - أحمد شاكر الكرمي[٤] :

قال عن جبري : إنه « شاب متناسق الأسلوب في شعره ونثره ، ينتقي ألفاظه ، ويُعنى برصفها ، ويقلّد بذلك خير الدين الزركلي ، ويسير على سننه »[٥]، فعلّق جبري على هذا الرأي بقوله : « أما انتقائي للألفاظ على مقدار طبعي وذوقي ... فهذا أمر لاريب فيه ... وأما تقليدي لخيرالدين ، فلو قال فيه ... الكرمي : إنه يهزني شعر خيرالدين ، فيثير الشعر في خاطري ، لكان قوله أقرب من الحقيقة »[٦].

وفي نظري أن دفاع جبري عن نفسه غير مقنع ؛ لأن مظاهر تقليده للزركلي ومعارضته واضحة ، بل إنك لتجد القصيدتين لهما ، توشكان أن تصبحا قصيدة واحدة ، لغلبة الشبه ، واتحاد المعاني ، وانظر في قول جبري :

---

(١) انظر : المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

(٢) انظر : الحوار الذي جرى مع سعيد الجزائري ، مجلة الثقافة ٧٧ .

(٣) مجلة المقتطف ، جمادى الآخرة ١٣٥١هـ ، ص ٣٦٧ ، ج٣ ، مج ٨١ ، من تعريفها بالكتاب .

(٤) (١٣١٢- ١٣٤٦هـ) كاتب صحافي ، رشيق الأسلوب ، أنشأ مجلة الميزان ، وترجم عدة قصص ، جمعت طائفة من مقالاته في كتاب سمي (الكرميات) . (الأعلام ١/١٣٤).

(٥) أحمد شاكر الكرمي ، مختارات من آثاره ، ص ٩٢ ، جمعها عبدالكريم الكرمي ، نشر وزارة الثقافة ، دمشق ١٩٦٤م "بتصرف" .

(٦) أنا والشعر ٩٥ .

سدّت مسالكه فضاق مجاله

واها له فمتى يُحل عقاله ؟[١]

وأقرنه بقول الزركلي :

لا التاج ينفعه ولا استقلاله

إن لم يحلّ وثاقه وعقاله[٢]

تجدْ مصداق ذلك ، لفظا ومعنى وعاطفة .

٢ - محمد لطفي جمعة[٣] :

أظهر هذا الناقد إعجابا كبيرا بمنهج جبري في كتابه عن الجاحظ ، ورآه « فتحا جديدا في عالم الأدب العربي »[٤] ، وشبّهه بـ (سانت بوف) ، بل إنه بالغ كثيرا حين نعته بأنه « علم النقاد في لغة العرب الحديثة غير مدافع »[٤]، وهذا غير مسلّم به ؛ فإذا كان جبري مجلّيا في ميدان الشعر ، وسابقا في النثر ، فإن كتاباته النقدية لم ترق به إلى أن يستحق ذلك الوصف .

٣ - محمد كرد علي :

يرى أن جبري مجيد كل الإجادة في حديثه عن المتنبي ؛ لأنه كان شاعرا مثله ، « والثوب لايلمح جودة نسيجه غير النساج الحاذق »[٥] ، وقال إن الأدباء وقعوا « في أسلوبه الدقيق ، وعنايته في التحقيق على شيء من التجدد الجميل ، مما لم يكد يجري به غير عدد قليل من أقلام الباحثين من المعاصرين في أدبنا العربي »[٦].

---

(١) نوح العندليب ٣٧ .

(٢) ديوان الزركلي ٢٢٨ .

(٣) (١٣٠٣- ١٣٧٢هـ) محام من كبار الكتاب والخطباء والمترجمين ، من أعضاء المجمع العلمي العربي ، كتب كثيرا في الصحف ، من كتبه (تاريخ فلاسفة الإسلام) و (الشهاب الراصد) و (ثورة الإسلام وبطل الأنبياء) . (الأعلام ١٥/٧) .

(٤) نقلا عن : أنا والنثر ، حاشية ٨٥ .

(٥) من كلمته في تقريظ كتاب (المتنبي) لجبري ، مجلة المجمع ٦٣٥ ، ج١٠ ، مج ١٠ .

(٦) المرجع السابق ٦٣٥ .

وفي رأيه أن سرّ تجويده فيما كتب عن المتنبي ، عائد إلى معاناته الأدب الفرنسي[١] ، وهذا مما يكاد يجمع عليه الدارسون ، إذْ إن الاطّلاع على مناهج التأليف عند الغربيين ، والاستفادة منها ، يثري الأدب العربي ، ويجدّد روحه ، شريطة ألا يتجاوز ذلك إلى طمسه أو استلابه .

٤ - محمد البزم :

أثنى البزم على شاعرية جبري ، مشيرا إلى ماجبل عليه من الطبع ، والبعد عن التكلف ، وخصّ معارضاته بمزيد ثناء حيث قال : إنه فيها « يحاول الإحكام والتنوّق ، فيصيبهما كثيرا ، ويخطئهما قليلا »[٢]، وهذا رأي فيه كثير من الصواب ، وبخاصة في معارضاته التي كانت تنحو منحى الاستلهام والاقتباس ، مما كان ينظمه في المهرجانات الأدبية[٣].

غير أن البزم استدرك بقوله : إن جبري يتجاوز ذلك الإحكام أحيانا ، جاريا وراء التنطع ، جريا يكاد يذهب برونق شعره وروعته[٤]، وهذا التنطّع تجده - مثلا - في معارضته للقصيدة المشهورة :

إن التي زعمت فؤادك ملها * خلقت هواك كما خلقت هوى لها[٥]

ويذهب البزم إلى أن مانراه في بعض شعره من كآبة ، تشبه كآبة السوداويين وأرباب الأمزجة العصبية ، متكلّفة ، « ليُعَدّ في الناقمين على الحياة وأهل الحياة ، وليس كذلك »[٦]. وفي نظري أن تلك الكآبة مما نجده عند كل شاعر ، بل كل إنسان ، ومن التجنّي نسبة جبري إلى التكلف ، لعدم الدليل عليه أولا ، ولكون النفس الإنسانية بعامة تحتوي كثيرا من الصفات المتناقضة ، كالحزن والفرح ، وغير ذلك .

---

(١) انظر : المرجع السابق ، الصفحة نفسها .
(٢) محمد البزم شاعر العربية ونحويها ٢٣٦ ، إبراهيم الكيلاني ، دمشق .
(٣) راجع الحديث عن معارضاته في مبحث الخصائص الفنية في الفصل الثاني .
(٤) انظر : محمد البزم شاعر العربية ونحويها ٢٣٦ .
(٥) راجع الحديث عن معارضاته .
(٦) محمد البزم شاعر العربية ونحويها ٢٣٦ .

٥ - سيّد قطب [١]:

لفت كتاب (العناصر النفسية في سياسة العرب) أنظار عدد من الدارسين ، إذ رأوا فيه نمطا جيدا من الدراسة ، وأسلوباً مبتكرا في تفسير التاريخ .

ومن هؤلاء سيد قطب ، الذي رأى أن لهذا الكتاب « قيمته في تنبيه الذهن إلى العوامل النفسية ، في أثناء مطالعة التاريخ ، والحكم على أشخاصه وأحداثه » [٢]، ولكنه نقد جبري في بعض المواضع ، ومنها : « أنه تصدى لموضوع ضخم لاتمكن دراسته في هذا الحيز الضيّق .. وأنه يصدر أحكاما ضخمة حاسمة في يسر وسهولة ، وبدون اكتراث وبلا تحرج ... وعدم التفرقة بين المعرفة بالعنصر النفسي ، والقدرة على التصرف بما توجبه هذه المعرفة ... وأن روح النفعية تنال منه الترحيب والتنويه » [٣].

أما أنّه تصدى لموضوع ضخم ، فأحسبه لم يكن يريد بكتابه هذا الاستقصاء ، ولكنه اتخذه أنموذجا يمكن احتذاؤه والكتابة على منواله ، وأما إصدار الأحكام الضخمة في سهولة ، فهذا من أكثر الملاحظ على هذا الكتاب دقة وحرجا ، وبخاصة حين يتعرض للتفضيل بين بعض الصحابة ، وتخطئة بعضهم [٤] .

ومن المثالب التي سجّلها سيد قطب ، أن جبري لم يكن يعترف في دراسته للتاريخ « بغير النجاح العملي ، ولو على أشلاء المثل العليا والأخلاق » [٥]، كما عابه لكونه لم يطّلع اطلاعا دقيقا على ماكتب في سيرة الرسول ﷺ [٦].

ولقد تعقّب قطب غلطات جبري ، ووصف بعض تفسيراته للتاريخ بالخطورة ، وعدّ بعض أحكامه المتعجّلة كإشادته بمعاوية ونقده عليا ، وقوله إن خديعة المصاحف خديعة خير ، عدّها « غلطة نفسية وخلقية لاشك فيها » [٧].

---

(١) (١٣٢٤ - ١٣٨٧هـ) مفكر إسلامي مصري ، شارك في الصحافة ، وله كتب في النقد والأدب ، منها : (التصوير الفني في القرآن الكريم) و (كتب وشخصيات) ، سجن لانتمائه لجماعة الإخوان المسلمين ، وصراحة آرائه ، ثم أعدم ، وأعظم كتبه (في ظلال القرآن) . (الأعلام ١٤٧/٣) .

(٢) كتب وشخصيات ٢٣٠ ، سيد قطب ، دارالشروق ، بيروت ، بلا تاريخ .

(٣) المرجع السابق ٢٣٤ .

(٤) انظر : العناصر النفسية في سياسة العرب ١٤ مثلا .

(٥) كتب وشخصيات ٢٤٢ .

(٦) انظر : المرجع السابق ٢٣٤ .

(٧) انظر : المرجع السابق ٢٤٣ .

٦ - سامي الدهّان :

يعد هذا الناقد من المعجبين بشاعرية جبري ؛ لأنه رأى في شعره « الموسيقى الجميلة ، والصياغة الجزلة »[١] ، وهو يذهب إلى أن الشاعر « رومانتيكي غنائي ، يعبر المشاهد من نفسه ، مايثور في نفسه ، فإذا سمع هديل الحمام رأى فيه البكاء والأشجان »[٢]، وفي نظر الدهّان أن جبري مجدّد من حيث اهتمامه بالوحدة العضوية في قصائده المتأخرة[٣]، وقد سبق لي الحديث عن إجادته فيها وقدرته على تحقيقها في كثير من قصائده .

ويُعجب الدهّان بقوة شعر جبري وجزالته ، فيرد ذلك إلى حرصه على النظم على قوالب الفحول من الشعراء[٤]، وبخاصة البحتري والمتنبي[٥]، وأحمد شوقي[٦].

أما في مجال النثر ، فقد استوقفه إبداع جبري فيما كتب في (أنا والشعر) و (أنا والنثر) ، ورأى أن هذه الترجمة الذاتية فيهما فذّة متميّزة[٧].

وهنا يلتقي مع كثير من الدارسين ، الذين أولَوْا هذين الكتابَيْن عناية بالغة ، ورأى فيهما بعضهم فتحا جديدا في عالم الأدب ، وقد مرّت إشارة إلى تفرّدهما عند الحديث عن آثاره النثرية .

٧ - جميل صليبا :

وهو الذي سمّى شفيق جبري « عميد أدباء الشام » ، ووصفه بأنه مؤلف جيد ، وناقد لطيف[٨]. وقرنه بالزركلي ، لاتفاقهما في الميل إلى التجديد ، والتأثر بالقديم[٩].

---

(١) الشعراء الأعلام في سورية ١٩٨ .
(٢) الشعر الحديث في الإقليم السوري ٢١٠ .
(٣) انظر : المرجع السابق ٢١٨ .
(٤) انظر : الشعراء الأعلام في سورية ١٩٤ .
(٥) انظر : الشعر الحديث في الإقليم السوري ٢٠٩ .
(٦) انظر : المرجع السابق ٢٠٤ .
(٧) انظر : المرجع السابق ١٩٥ .
(٨) انظر : اتجاهات النقد الحديث في سورية ١٧٥ .
(٩) انظر : المرجع السابق ٥٩ .

ولقد عدّه من الشعراء الاتباعيّين (الكلاسيكيين) الذين « تجد قصائدهم مطبوعة بالطابع القديم ، سواء في المنحى الموضوعي أو الأسلوبي ، فتراكيبهم فخمة متقنة ، وصورهم كلية ، وأسلوبهم متزن ، وموسيقاهم اتباعية ، وموضوعاتهم عقلية ، وخيالهم حسّي »[١]، وقد أقرّ جبري أن ينسبه صليبا إلي الكلاسيكية ، ولم يمانع في ذلك[٢].

ولكن هذا الرأي يوهم بتعارضه مع رأي الدهّان ، الذي يذهب إلى أن الشاعر رومانتيكي ، كما سلف ، والحقيقة ألا تعارض ؛ لأن حكم الدهان مخصوص بشعره في الطبيعة ، أما تأثره بالكلاسيكية ، فهو حكم يستغرق شعره بعامة .

أما طريقة جبري في الدراسات الأدبية ، فيرى صليبا أنها « شبيهة بمناهج القدماء ، إلا أنها تختلف عنها بما تضمنته من الأخذ ببعض مناهج المحدثين »[٣]، ولعله يعني بشبهها بمناهج القدماء ، مافيها من استطرادات كثيرة ، وبعد عن التنسيق العلمي .

ويرى صليبا أن اهتمام جبري بحياة الألفاظ ، جاء رغبة منه في تقوية اللغة ، وبث الحياة فيها[٤] ، وأشار إلى اهتمامه بنبش بعض الألفاظ والتراكيب المنتشرة على أفواه العامة ، وقال إن الذي دفعه إليه حب السهولة والبساطة ، ولم يكن دافعه الرغبةَ في استبدال العامية بالفصحى[٥].

كما درس جميل صليبا منهج جبري النقدي ، فلحظ أنه « يميل إلى المنهج التأثري أو الذاتي في نقد الشعر »[٦]، ولكنه - مع ذلك - لم يحبس نفسه في دائرته ، بل خرج إلى دائرة النقد الموضوعي ، فاستطاع الجمع بين الذاتية والموضوعية في وزن واحد من الائتلاف[٧].

---

(١) محاضرات في الاتجاهات الفكرية ٢١٨ .
(٢) راجع مقال (شفيق جبري ورسالة لم تتم) ٥٩ .
(٣) اتجاهات النقد الحديث في سورية ١٨٢ .
(٤) انظر : المرجع السابق ١٨٠ .
(٥) انظر : المرجع السابق ١٧٨ .
(٦) اتجاهات النقد الحديث في سورية ١٨٤ .
(٧) المرجع السابق ١٩٤ " بتصرف " .

٨ - عبدالفتّاح المصري [١]:

اهتم هذا الناقد بآثار جبري اللغوية ، وخصّها بدراسة جيّدة ، مشيرا فيها إلى العلاقة الوثيقة التي ربطته باللغة ، حتى باتت جزءا أصيلا من مكونات نفسه [٢].

وتوصّل في دراسته تلك ، إلى أهم الطوابع التي ظهرت في مقالات جبري اللغوية :

وأولها : طابع الخواطر ، الذي يغلب على أكثر ماقال ، مما جعله يلجأ إلى التكرار وتداخل المعاني [٣].

وثانيها : طابع الطرافة في طريقة التناول ، لإبعاد الملل عن النفوس ، ودفع تهمة الجفاف عن البحث اللغوي [٤].

وثالثها : تحلّيه بالخلقية العلمية ، من اتزانٍ وتواضع وحيوية وصبر [٥] .

٩ - شكري فيصل :

يتفق شكري فيصل مع سامي الدهان ، في الحكم بتأثر جبري بالنزعات الرومانتيكية ، ولكنه يرى أنها لم تستطع الاستبداد به ، لأنه « كان مشدوداً إلى ثروة أدبية عربية ... كان المأثور العربي يملأ وجوده الداخلي »[٦] .

ويعد شكري فيصل من أكثر الذين درسوا شعر جبري عمقا ونضجا ، وذلك في بحثه الموسع عنه (الشعر والشاعر) الذي اتُّخِذَ مقدمة لنوح العندليب ، وبضع مقالات أخرى متناثرة في عدد من الصحف والمجلات .

ولذلك نجده يطلق آراءه في شعره ، بثقة الباحث المتعمق ، ويناقش آراء جبري نفسه ، فيرد بعضها ، فمن ذلك أن جبري قال : إنه ترك المعارضة ، وجرى على طبعه

---

(١) (١٩٤٤ - ١٩٨٣م) كاتب ناقد ، له اهتمام باللغة ، شارك في الكتابة للصحف والمجلات ، ومن آثاره (قطوف لغوية) ، عرف بجودة الخط ، ومات شابا . (انظر : أعضاء اتحاد الكتاب العرب ٧٨٨) .

(٢) انظر : مقال (شفيق جبري باحثا لغويا) لعبدالفتاح المصري ٢٨ .

(٣) انظر : المرجع السابق ٤٧ .

(٤) انظر : المرجع السابق ٤٨ .

(٥) انظر : شفيق جبري باحثا لغويا ٤٩ .

(٦) مقدمة شكري فيصل للديوان ٢٠ .

وحده ، فلم يأخذ فيصل هذا القول مأخذ التسليم ، وقال إن هذا يحتاج إلي نوع امتحان ، ثم استشهد بقصيدة له تدل على احتذائه لغيره [١].

ومما أعجبه في التجربة الشعرية عند جبري ، اهتداؤه إلى بعض مايدعو إليه النقد الحديث ، من أن تكون القصيدة أشبه بالبناء يشد بعضه بعضا ، على أن يتوافر فيما بين هذه الأجزاء أمران اثنان : التناسب والتكامل [٢].

ويذهب إلى أن جبري ، مع ذلك التنْسيق لم يخرج عن حدود الطبع ، ويجب أن نفهم هذا التصميم أو هذا البناء في حدوده الفنية التي تعني المتعة ، ولاتعني الفائدة وحدها [٣].

غير أن تلك الآراء الدقيقة ، والأحكام المعلّلة ، التي قال بها شكري فيصل ، تتأثر أحيانا بما بينهما من صداقة ، فتجده يجازف بإطلاق حكم ، لاتؤيّده عليه الشواهد ، كقوله : إنه رأى في مقالات جبري وكتبه النضج كله [٤].

وعندما تعرّض للحديث عن دراساته لبعض أعلام الأدب ، عدّه رأساً للدراسات الأدبية بالمعنى الحديث الذي نصطلح عليه[٥] ؛ لأنه وجد عنده « القدرة على الكشف عن الأشياء ، والظفر المبكر بها ، والوقوع عليها ، ويمثل ذلك بوضوح كتاباه : المتنبي .. والجاحظ ، فقد كانا بداية الاتصال بالدراسات الأدبية المحدثة والتنبه لها ، واستطاع جبري بهما أن يدلّ على وجود الحياة الأدبية ، بالمعنى الجامعي الأكاديمي » [٦].

أما الكتابان اللذان يؤلفان - في رأي شكري فيصل - ذروة عمله الأدبي ، فهما (أنا والشعر) و (أنا والنثر) ، إذ يقف جبري فيهما عدلاً لتلك القمم الرفيعة ، التي كتبت سيرها الذاتية [٧].

---

(١) راجع مقال (التجربة الشعرية عند شفيق جبري) ، بقلم د. شكري فيصل ، مجلة الثقافة ، العدد الخاص ، ص ١١ .

(٢) انظر : المرجع السابق ١٤ .

(٣) انظر : المرجع السابق ١٥ .

(٤) انظر : كلمة شكري فيصل في مجلة الموقف الأدبي ٢٣١ .

(٥) انظر : المرجع السابق ٢٣٠ .

(٦) المرجع السابق ٢٣٠ " بتصرف " .

(٧) من كلمته في مجلة الموقف الأدبي ٢٣٠ .

١٠- وليد الأعظمي[١] :

الأعظمي رجل مشدود إلى تاريخه العربي والإسلامي ، تأخذه الحماسة للدفاع عنه ، فينسى - في غمرتها - أنه تاريخ بشر ، يعتريه النقص ، ويقع فيه مايقع في غيره ، ولذلك كان يرى أن كتاب الأغاني متهافت ، لأنه - كما يقول - لم يصور الحياة على حقيقتها ، بل إنه مليء بالدسّ والتشويه ، والشعوبية والزندقة .

إنه مشفق على تاريخ أمته أن ينسب إليه شيء من ذلك ، ساعٍ إلى تنقيته منه ، مدافع عنه ماوسعه الدفاع ، ولذا كان نقده لكتاب جبري (دراسة الأغاني) نقدا عنيفا ، لاهوادة فيه ، إذ وصف هذه الدراسة ابتداءً بأنها « سطحية ، وعاطفية غير متينة »[٢].

وسبب هذا الحكم أن جبري سلّم بكثير مما ورد في الأغاني ، تسليما مطلقا ، بلا نقاش أو تمحيص وتدقيق ، فاستحق - في نظر الأعظمي - أن يوصف بقلة البضاعة ، وعدم الاطلاع على التراث ، والجرأة في الأحكام[٣].

غير أني أجد الأعظمي قد أبعد النجعة ، ورمى في غير مرمى ، حين تجاوز في نقده أساليب العلماء ، فصار يهدر بمثل قوله : « ولكن ذوي الهمم القاصرة ، والنفوس الباردة الفاترة ، تميل إلى هذه السخافات ، تحاول أن تستخرج منها مايشير إلى فهمها ، فيفضحها الجهل والفراغ »[٤].

ومع إقراري بأن عند جبري هناتٍ كثيرة وتجاوزات في دراسته للأغاني ، لا أقرّ أن يوصف بأنه تلميذ مطيع للمستشرقين ، كما يزعم الأعظمي في قوله : « وإني لأعجب من الذين يتبجّحون بالبحث العلمي ، والدراسات المنهجية ، ولهم دويّ ولغط ، ... ثم هم يسكتون عن مثل هذه المثالب ... متّبعين في ذلك خطوات أسيادهم المستشرقين »[٥].

---

(١) (١٩٣٠ - ١٩٨٨م) شاعر أديب عراقي ، ينحو منحى إسلاميا ، له ديوان (أغاني المعركة) ، وشارك في تحقيق بعض كتب التراث ، وهو خطاط عضو في جمعية الخطاطين العراقيين ، وله دراسات أدبية .

(٢) السيف اليماني في نحر الأصفهاني صاحب الأغاني ٥٧ ، وليد الأعظمي ، دار الوفاء ، المنصورة ، الطبعة الثانية ١٤١٠هـ .

(٣) انظر : المرجع السابق ٥٦ .

(٤) المرجع السابق ٩٧ .

(٥) السيف اليماني ١١٧ .

إن إعجاب جبري بكتاب الأغاني ، أنساه كثيرا من معايبه ، وإن نقمة الأعظمي على الأغاني ، جعلته يمحو عنه كثيرا من الحسنات ، وقد وقف الرجلان موقفين متباينين ، ولكن يجب أن يكون في احتدام الخلاف فسحة للصلح ، وموضع للتلاقي.

والعجب أن ثورة الأعظمي هذه ، على (دراسة الأغاني) ، يقابلها إعجاب بالغ ، وثناء جم من قبل بعض النقاد ، الذين رأوا فيها الدراسة العميقة التي تنحو نحو كبار نقاد الفرنجة [١] ، وهذا مما يدل على أن ثمة مجالا للأخذ والرد ، بعيدا عن الحماسة المفرطة التي نراها عند الأعظمي ، والتي لم يَدْعُهُ إليها بلا شك ، إلا غيرته على التراث ، وحرصه على تنقية التاريخ ، ودفع تُهم خصومه .

١١ - أحمد الجندي [٢]:

يذهب هذا الناقد إلى أن شعر جبري « جافٌ ، كأنما انتزعه من طبعه وحياته » [٣] ، ولكنه في الوقت نفسه ، يرى له مكانة في الشعر أكبر من التي نالها [٤].

ولعل حكمه بجفاف شعر جبري ، هو الذي دعاه إلى تشبيهه بالفرزدق [٥] ، وهذا رأي غريب ، لا أجد له عضدا من شعر جبري ، ولامن آراء النقاد الآخرين ، وأين شعر الفرزدق البدوي من شعر جبري الذي غلبت عليه الرقة والسهولة ؟ !

ومن المواضع التي أجدني فيها أميل إلى رأي أحمد الجندي في شعر جبري ، نقده لقصيدته التي مطلعها :

ما الذي هيّج الحمى والعربا * أنسيمٌ من شاعر العُرْب هَبّا [٦]

---

(١) انظر : على الطائر ١٤١ .

(٢) (١٩١٠ - ١٩٩٠م) أديب شاعر ، عمل في مجمع اللغة العربية بدمشق ، واشتغل بتحقيق عدد من الآثار مشتركا مع آخرين ، فأخرج ديوان فتيان الشاموري ، وديوان ابن النقيب ، وديوان عرقلة الكلبي ، وصدر له أخيرا سيرة ذاتية بعنوان لهو الأيام . (نقلا عن لهو الأيام) .

(٣) لهو الأيام ٢٣١ " بتصرف " .

(٤) انظر : المرجع السابق ٢٠٧ .

(٥) من مقالته عن الشاعر في مجلة العربي ٧٠ ، والفرزدق (؟ - ١١٠هـ) همام بن غالب ، شاعر عظيم الأثر في اللغة ، يعد في الطبقة الأولى من الإسلاميين ، وكان مشهورا في الفخر ، وله ديوان مطبوع ، واشتهرت نقائضه مع جرير . (الأعلام ٩٣/٨) .

(٦) نوح العندليب ٢٠٧ .

حيث قال إن في هذه القصيدة تشعيثاً [١] كثيرا ، يفقد الشعر بعض موسيقاه ، وإن القوافي فيها مقصّرة نغميا[٢] .

أما في مجال إنتاجه النثري ، فقد عدّ الجندي كتابيه عن المتنبي والجاحظ ، « من خير ماكتب عن هاتين الشخصيتين ونقدهما ، وتثمين عبقريتيهما »[٣].

١٢- محمد سعيد العامودي [٤]:

أعجب العامودي بكتاب (العناصر النفسية في سياسة العرب) ، فخصه بمقالة نشرت في مجلة المنهل [٥]، ثم إنه زاد فيها ، ونقص منها ، ونشرها من بعد في أحد كتبه .

ويدور تعليقه على هذا الكتاب في دائرتين ، **الأولى** : دائرة الثناء على مهارة جبري في تفسير الأحداث تفسيرا واقعيا صحيحا ، يعتمد على التحليل النفسي ، **والأخرى** : دائرة النقد لبعض آرائه .

فمما أثنى به عليه ، كونه « لايكتفي بالتحليل الخاص ، أي تحليل الحادثة وحدها ، بل هو غالبا مايتدرج من الخاص إلى العام ، إنه يشير إلى الحادثة ويعلق عليها ، ثم ينتقل إلى التعليق الشامل »[٦].

ومن المواضع التي انتقده فيها ، وصفه جنوح عمر بن الخطاب إلى الشورى بأنه « غلطة نفسية »[٧]، وعدّ العامودي هذه غلطة قلمية من جبري ، ليست هينة [٨].

---

(١) التشعيث : هو حذف أول الوتد المجموع ، ويدخل في أحد أضرب الخفيف التام ، فتصبح فاعلاتن : فالاتن (أهدى سبيل إلى علمي الخليل ٣٤ و ٨٠) .

(٢) من مقالته عن الشاعر في مجلة العربي ٧٣ .

(٣) لهو الأيام ٢٢٧ .

(٤) (١٣٢٣ - ١٤١١هـ) شاعر كاتب سعودي ، أشرف على إدارة مجلة الحج التي تصدر بمكة ، ومن آثاره (من رباعياتي شعر) و (من أوراقي) و (من حديث الكتب) . (نقلا عن : معجم الكتاب والمؤلفين في المملكة العربية السعودية ٩٦) .

(٥) راجع مجلة المنهل ، العدد ٤ ، ربيع الآخر ١٣٦٥هـ ، ص ١٦٠ ، والعدد ٥ ، جمادى الأولى ١٣٦٥هـ ، ص ٢١٣ .

(٦) من تاريخنا ٩١ .

(٧) العناصر النفسية في سياسة العرب ٢١ .

(٨) انظر : من تاريخنا ٩٣ .

وأكثر نقدات العامودي ، صحيحة واقعية ، لأنه تعقب غلطات جبري ، التي أوقعه فيها ميله إلى التحرر من كل مؤثر ، فصار يطلق التهم على بعض عظماء التاريخ ورجالات الإسلام ، بلا تحفظ ، أو مراعاة لأحوال العصور ، وتبدّلها .

وفي رأيي أن على من أراد قراءة العناصر النفسية ، أن يقرأ معها تعليق سيد قطب عليها ، الذي مر بنا في هذا المبحث ، ثم يقرأ تعليقات العامودي ؛ لأن هذين الناقدين أشارا إلى مواضع الزلل التي وقع فيها جبري ، ونبّها إلى بعض الهنات ، وبيّنا أيضا ملامح الإجادة عنده ، مما يجعل القارئ يتنقّل في رياض من الدراسة التاريخية النفسية ، المحوطة بالحوار الهادف ، والنقد البناء .

١٣ - علي الطنطاوي :

يعد جبري أستاذا لعلي الطنطاوي ، الذي أشاد بشاعريته ، وعده أشعر أهل الشام [١] ، وجعله في الطبقة الأولى من شعراء هذا العصر [٢] .

وقال عن أسلوبه الشعري : إنه « الأسلوب الأنيق النظيف ، وإن لم يكن بالأسلوب المتدفق ، الذي تحس بأنه ينطلق مندفعا من طبع شعري غزير النبع ، وفي شعره روح من نفس البحتري » [٣].

كما عدّ الطنطاوي كتابيه عن المتنبي والجاحظ ، من الآثار الأدبية الخالصة ، التي خرجت في ذلك العهد [٤] ، أما كتاباه اللذان سجّل فيهما تجربته الفنية مع الشعر والنثر ، فإن في كلام الطنطاوي مايشير إلى عدم رضاه عنهما ، بل إنه يسلكهما في عداد دعاية الأدباء لأنفسهم [٥].

ومن آراء جبري التي نقدها الطنطاوي ، الرأي الذي ذهب فيه إلى أن الأدب ألهية شريفة ، حيث ردّ عليه برسالة عنوانها (الأدب القومي) [٦] ، جاء فيها قوله :

---

(١) انظر : ذكريات الطنطاوي ٢٣٤/١ .
(٢) انظر : المرجع السابق ٢٠٢/٢ .
(٣) المرجع السابق ٢٣٤/١ .
(٤) انظر : فكر ومباحث ١٦٥ .
(٥) انظر : المرجع السابق ، هامش ص ٩٤ .
(٦) انظر : ذكريات الطنطاوي ٢٣٤/١ .

« الأستاذ - أي شفيق جبري - يدعو إلى أدب مجرد ، يمارس ليدرك به جمال الوجود ، ويفرّج به غم الحياة وكربها ... لايعنيه أخلاق تقوّم ، ولاعادات تصحح ، ولاتهمه أمة ولا وطن ... أي أنه يطلب من شبابنا الأدباء ألا يروا في الحياة إلا اللهو واللعب ، وأن يكون كل مطلبهم منها لذتهم فيها »[١].

لقد دعا الطنطاوي إلى جعل الأدب سندا للحق ، والخُلُق ، وعاملا للإصلاح ، وسلاحا للنضال ، لأنه يرى أن الأدب لايجدي إن لم يكن أدب حياة[٢].

وفي رأيه أن جبري لم يحسن اختيار الوقت الملائم لإعلان رأيه ذاك ، لأنهم كانوا في نضال من أجل الاستقلال ، يجب أن تسخّر له كل إمكانات الأمة[٣].

وفي رأيي أن مذهب جبري في جعل الأدب ألهية شريفة ، مذهب فيه واقعية وصراحة ، في النظر إلى أثر الأدب شعره ونثره في الأحداث والتاريخ ؛ إذ إنه لايعدو أن يكون مسكّنا للآلام ، أو مهيّجا للعواطف التي لاترقى إلى درجة الفعل ، وبخاصة في هذا العصر الذي تراجعت فيه الكلمة عن التأثير الفاعل .

ولقد غمز جبري من جانب الطنطاوي ، وعرّض به في قوله : « ومن عادتي ألا أبالي بالنقد ، وألا أرد على أحد ، وأن أمضي في سبيلي دون شيء من التلفت ، ولاسيما إذا كان النقاد من أصحاب الرأي الفطير »[٤].

على أن عدداً ممن تعرضوا لرأي جبري ، نقدوه فيه ، موافقين الطنطاوي فيما ذهب إليه ، فمن ذلك ماجاء في مجلة المقتطف ، تعليقا على رأي جبري ، حيث قال الكاتب : « وربما أخذنا على الأستاذ أن يستكثر على الأدب أن يدرّس ، لأنه يعد الأدب لهوا شريفا ، ويرى أن كلمة الدراسة تدل على شيء من إجهاد الذهن ... فإننا نرى في تعبيره هذا مايصدم الحقيقة ... فليس الأدب لهوا ، ولم يعتبر كذلك إلا في عصور الانحطاط »[٥].

---

(١) المرجع السابق ٢/٢٠٥ .
(٢) انظر : المرجع السابق ٢/٢٠٦ .
(٣) انظر : ذكريات الطنطاوي ٢/٢٠٣ .
(٤) أنا والنثر ٧٩ .
(٥) من تقريظ كتاب المتنبي ، مجلة المقتطف ، جمادى الآخرة ١٣٤٩هـ ، ص ٤٦٦ ، ج ٤ ، مج ٧٧ .

غير أن جبري ظل صامتا تجاه نقّاده ، ورأى بدلاً من مناقشتهم - وهو يكره المناقشة كما يقول الطنطاوي[١] - أن يثبت بعض الآراء التي ناصرته وشرحت رأيه .

فمن ذلك قول بعضهم : « قد أساء كثير فهم هذه النظرية ، فأساؤوا إليها وإلى صاحبها ، فجبري لم يجعل الأدب هزل هازل ، وإنما أراد .. أن يجعل الأدب في معزل عن شؤون الحياة ووسائل المعيشة ، كما أن الشاعر لايحرق شعره ليتخذ به طعاما يسد جوعه »[٢].

وعندي أن هذا الرأي من جبري ، مقتبس من رأي أناتول فرانس ، الذي يرى أن يكون موضوع الفن الجمال ، لا الحقيقة[٣]، أو لعله استوحاه من رأي آخر له ، يذهب فيه إلى أن الأسلوب الأمثل في الأدب ، هو الأسلوب السهل الذي لايكد ذهن القارئ ، « فللعلم حق الانتباه والتأمل علينا ، وليس للفنون ذلك الحق ، لأنها بطبيعتها تسر ولاتفيد »[٤].

١٤ - عمر الدقّاق[٥] :

يرى أن جبري الباحث والمؤلف ، ينطوي على قدر وافٍ من التجديد ، ولكن جبري الشاعر ظل عصيًا على تلك المؤثرات[٦].

ويذهب أيضا إلى كون جبري متأثرا تأثرا كبيرا بالرومانسية ، شأن غيره من شعراء عصره الذين فتنوا بأعلام هذا المذهب الغربي ، وزاد من ولعهم به أنهم عاشوا حالة من التمزق والفوضى السياسية ، وسيطرة الاستعمار ، وكان من مظاهر

---

(١) انظر : ذكريات الطنطاوي ٢/٢٠٣ .

(٢) انظر : مقال (نقد وتحليل لكتاب المتنبي) في جريدة العهد الجديد ، في بيروت ، نشرت في ٣١ كانون الأول ١٩٣٠م ، نقلا عن : أنا والنثر ٧٩ .

(٣) انظر : مقال (الأسلوب) ، بقلم شفيق جبري ، مجلة المجمع ٢٢١ ، ج ٤ ، مج ١٠ ، وانظر كذلك : مقالة (سحر العبقرية) ٢٢٦ ، المرجع نفسه .

(٤) مدخل إلى علم الأسلوب ١٧ ، شكري عيّاد ، دار العلوم ، الرياض ١٤٠٣هـ .

(٥) (١٩٢٧- ...) ناقد سوري ، غزير الإنتاج ، من آثاره (مصادر التراث العربي) و (ملامح الشعر الأندلسي) ، (نقد الشعر القومي) ، ويعمل الآن أستاذا بجامعة حلب . (انظر : أعضاء اتحاد الكتاب العرب ٢٧٨) .

(٦) انظر مقال : تأثير الغرب في أدب شفيق جبري ٣٥ .

رومانسية جبري - في رأي الدقاق - كثرة ماترجم لأعلام الرومانسيين[١] ، وفيه نظر .

ولفت نظر الدقاق اختيار كثير من الشعراء - ومنهم جبري - الإطار الرمزي لبعض قصائدهم ، وعلّل ذلك بكونه ناتجا عن دوافع خارجية ، أملت عليهم أن ينحو هذا المنحى في أسلوبهم ، وهي المتمثلة في جو الإرهاب ، والاستبداد والاستعمار[٢].

١٥- محمد الكتّاني[٣] :

أدرج الكتاني مؤلفات جبري تحت الآثار التي كانت « وثبة واضحة نحو الإبداع والتجديد وارتباط الأدب بالمجتمع والحياة ، وبالوجدان المفعم بالحيرة والتوتر والشك والتمرد »[٤].

وقال : « إن التقاء القديم والجديد في مجال الدراسة أو في مجال النقد ، يبلغ مرحلة وسطا من التوازن بين الذاتية والموضوعية عند شفيق جبري ... فهو من ناحية ناقد تأثري ... وهو من ناحية أخرى باحث يصطنع المنهج التاريخي ... وهو ... حريص على تراث الأمة العربية الأدبي ، معتزّ بقيمه الفنية »[٥].

وهو في حكمه هذا متفق مع الناقد سمر الفيصل ، سيأتي رأيه لاحقا، وإن كان الفيصل يرى أن الذاتية هي الأصل ، وأن انصرافه إلى النقد الموضوعي جاء بأخَرة .

١٦- خلدون الشمعة [٦]:

عدّ هذا الناقد شفيق جبري من النقاد ، الذين لهم نشاط تعليمي ، والذي تعد مجهوداتهم محاولات في إحياء النقد العربي القديمي في إطار عصري [٧] .

(١) انظر : المرجع السابق ٣١ .
(٢) انظر : الاتجاه القومي في الشعر المعاصر ٥٠٤ .
(٣) (١٩٣٤ - ...) أديب مغربي ، يعمل أستاذا للأدب بجامعة محمد الخامس بالرباط ، له آثار نقدية وأدبية ، ومشاركات صحفية (من ترجمته لنفسه في كتاب الصراع بين القديم والجديد) .
(٤) الصراع بين القديم والجديد في الأدب العربي الحديث ٣٤١/١ .
(٥) المرجع السابق ٥١٨/١ .
(٦) (١٩٤١ - ...) دمشقي ، ناقد أديب ، من أعماله المطبوعة (النقد والحرية) و (المنهج والمصطلح) . (انظر : أعضاء اتحاد الكتاب العرب ٤١٠)
(٧) انظر : الشمس والعنقاء ٧١ ، خلدون الشمعة ، دمشق ١٩٧٤م .

وفي معرض حديثه عن النقد اللغوي ، قال إن مادة البحث كان مدارها الأدب القديم في معظم الأحيان ، واستشهد بنص لجبري [١] ، وفاته أن معظم مقالات جبري كانت تدور على الألفاظ المستخدمة في عصرنا هذا ، وما تقصّيه لبقايا الفصاح إلا ربط للحاضر بالماضي ، ودليل حيّ على رغبته في إحياء القديم الذي يعضد الحديث ويقوّيه .

١٧ - سمر روحي الفيصل [٢]:

امتاز هذا الناقد بآرائه الجريئة ، التي لاتنظر إلا إلى خدمة الأدب ورفعته ، بعيدا عن التعصب القومي أو الوطني ، وهذه محمدة بلا ريب .

ومن آرائه أن الشعراء السوريين ، من الجيل الأول والثاني - وجبري منهم - لم يكونوا أكثر من نُسخ معدّلة قليلا أو كثيرا عن شوقي وأسلوبه الشعري [٣].

ومن مآخذ هذا الناقد على جبري ، في كتابه عن المتنبي ، أنه وقف « موقف المعجب الذي يكرر مارصده القدامى من أغلاط الشاعر » [٤]، وهذا مأخذ قوي ، إذ إن ذلك ينطوي في أقل حالاته على ضعف الشخصية، التي تذوب في غيرها، وتتهاوى تجاه الإرث التاريخي ، الذي يضفي على المترجم له هالةً من القداسة والتعظيم .

كما نقده لأنه استعمل مصطلح (الوحشي من الألفاظ) ولم يغيّر من مضمونه شيئا ، وكرّر الألفاظ الوحشية التي ذكرها القدماء ، ولم يضف إليها أيَّ لفظة مستمدة من شعر معاصريه [٥].

أما مذهب جبري النقدي ، فيرى سمر الفيصل أنه يصدر في محاضراته النظرية عن النقد الانطباعي [٦] ، وشرح فكرته دون أن يسميه باسمه [٧].

---

(١) انظر : المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

(٢) (١٩٤٨ - ...) ناقد سوري ، كان أبوه محمد روحي الفيصل من كبار النقاد ، ولسمر اهتمام بأدب الطفل ، وبالرواية السورية ، ومن آثاره (أسامة بن منقذ) و (تجربة الرواية السورية) ، وله مشاركات صحفية كثيرة . (انظر : أعضاء اتحاد الكتاب العرب ٥٧١) .

(٣) انظر : النقد الأدبي الحديث في سورية ٣٥ .

(٤) انظر : المرجع السابق ٦٧ .

(٥) انظر : المرجع السابق ٦٩ .

(٦) انظر : النقد الأدبي الحديث في سورية ٥٥ .

(٧) انظر : المرجع السابق ٥١ .

وأشار إلى أن مشكلة التنظير للنقد الانطباعي عند جبري ومعاصريه واحدة ، فقد فهموا أنه نقد ذاتي وحسب ، ففسحوا المكان لكل إنسان أن يكون ناقدا ، وقد خرج جبري إلى الأسس الموضوعية فيما بعد حين خشي أن يكون النقد مركبا سهلا لكل قارئ[١].

١٨- عادل فريجات[٢] :

امتدح هذا الناقد الروح الموضوعية عند جبري ، حين نقد نفسه في قصيدته الدالية ، التي رثى بها أحد التجار ، وهي من بواكير شعره [٣].

وذهب إلى أن جبري يُضاهي بأحمد شوقي[٤] ، وفي هذا الرأي مبالغة لايحسن صدورها من باحث ممحص ؛ لكون شوقي علما فذا لم يقدر جبري ولا أترابه على الوصول إلى مكانته .

١٩- عبدالفتاح عفيفي [٥]:

ذهب عفيفي مذاهب متكلفة ، في تقرير جودة شعره ، من حيث مشاكلة اللفظ للعاطفة ، وللموقف وللقافية ، وضرب لذلك الأمثلة ، ولكنها آراء غير مسلّم بأكثرها[٦] ، ودراسته بعامة يشوبها الإعجاب المطلق بالشاعر ، والتغاضي عن أخطائه إلا ماندر ، فهو يدرس شعره بعين الرضا فقط ، وذلك من أكثر مزالق البحث الأدبي ، عند دراسة الشخصيات .

---

(١) انظر : المرجع السابق ٥٤ .

(٢) (١٩٤٩ - ...) أديب ناقد سوري ، يعمل أستاذا للأدب العربي القديم في جامعة دمشق ، من آثاره : (خمسة إشكالات نقدية) و (بشر بن أبي خازم) و (إضاءات نقدية) . (انظر : أعضاء اتحاد الكتاب العرب ٥٥٦) .

(٣) انظر : (شفيق جبري ورسالة لم تتم) ٦١ .

(٤) انظر : (ديوان نوح العندليب يرى النور) ٤٣ .

(٥) أستاذ جامعي ، عمل وكيلا لكلية اللغة العربية بالمنوفية في مصر ، وله بعض الآثار العلمية ، منها : كتاب عن شفيق جبري .

(٦) انظر : شاعر الشام شفيق جبري ١٣٨ و ١٥٤ مثلا .

أما قوله : « إن القاعدة التي ذكرها شفيق جبري في تخصيص البحور الطويلة للحروب والنزال، ليست قاعدة مسلّمة دائما »[١]، فإنه قول يحتاج إلى بعض المناقشة :

إن جبري لم يقل إن البحور الطويلة مخصصة للحروب والنزال ، ولكنه قال كلمة عامة هي : « إن لكل فكر من الأفكار بحرا خاصا »[٢]، ثم عطف عليها قائلا : « وجد المتنبي تفاعيل طويلة تستوعب جر الحديد ، وزحف الجيش ، وضرب الهامات ، ونثر العدو »[٣]، فلم ينصّ على تخْصيص هذه المعاني بالبحور الطويلة ، كما فهم ذلك عفيفي .

على أن نظريته تلك فيها من الصدق والواقع الشيء الكثير ، ولكنها ليست قاعدة مطّردة .

٢٠- محمد رجب البيّومي[٤] :

وصف البيومي شعر جبري بالجزالة ، وقوة الرنين ، والميل إلى البساطة السهلة القريبة ، فهو أقرب إلى أبي تمام منه إلى غيره[٥].

وعنده أن « أجمل مايلحظه الدارس لديه ، أنه فنان حقا في ملاحظاته النقدية ، إذ لايسوق هذه الملاحظات مساقا أكاديميا يعجّ بالتعريفات والقواعد ، ولكنه يقدمها في مساق فني ، هو إلى روح الشاعر أقرب منه إلى روح الباحث »[٦].

وهذا يوافق ما أشرت إليه من ميله إلى اللغة الشعرية ، وإيثاره إياها ، حتى في بعض مقالاته النقدية[٧].

---

(١) المرجع السابق ٢٦٠ .
(٢) أنا والشعر ٩٠ .
(٣) المصدر السابق ٩١ .
(٤) شاعر أديب مصري ، عمل مدرسا في كلية اللغة العربية بالرياض ، من آثاره الشعرية ديوان (صدى الأيام) وديوان (حصاد الدموع) ، وله من الكتب (قطرات المداد) .
(٥) انظر : مقال (شفيق جبري وآراؤه النقدية) لمحمد رجب البيومي ، المجلة العربية ، السنة الخامسة ، العدد ٨ ، ص ٥٢ .
(٦) المرجع السابق ٥٢ .
(٧) راجع مبحث أسلوبه في الفصل الثالث من هذا البحث .

ومما تناوله البيومي من آثار جبري ، موازنته بين بعض أقاصيص الجاحظ عن البخلاء ، وبين بعض المسرحيات الغربية ، حيث رأى أنها موازنة ظالمة ؛ لكون المسرحيات تلك مكتملة الفصول ، أما أقاصيص الجاحظ ، فتهدف « إلى النادرة الفكهة دون أن تمعن في التصوير »[١].

كما ذهب إلى أن موازنته بين أدبي الطبيعة عند العرب والفرنجة ناقصة[٢]؛ لأنه يكتفي بقطعة واحدة من كليهما ، ويجعل الاثنتين وحدهما مقياسا شاملا[٣].

٢١- محمد حسن عبدالله[٤] :

أثنى هذا الناقد على تجربة شفيق جبري الشعرية ، وعدّها « من أخصب التجارب .. لما فيها من صدق وبساطة ، وبعد عن الاستعلاء والاستغلاق »[٥].

وعندي أن خصب التجربة الشعرية عنده ، جاء من عدة مصادر ، فمنها حفظه لكثير من عيون الشعر العربي القديم ، واطلاعه في آداب الغربيين ، وحرصه الشديد على التجديد .

غير أن قول محمد حسن عبدالله إن تجربته بعيدة عن الاستعلاء والاستغلاق ، يحتاج إلى شيء من الشرح ، ولعله يقصد بذلك بعده عن الغموض ، وقربه من التناول لفظا ومعنى .

٢٢- نذير محمد مكتبي[٦] :

جاء في (دراسة الأغاني) لجبري ، مايلي : ويجدر بنا .. أن ننطلق بعض الانطلاق من قدسية التاريخ ، وفي أكثر الأحوال لانستطيع أن نفهم روح التاريخ إلا

---

(١) شفيق جبري وآراؤه النقدية ٩٥ .
(٢) انظر هذه الموازنة في : بين البحر والصحراء ، ص ٣١ و ٣٥ ومابعدهما .
(٣) انظر : شفيق جبري وآراؤه النقدية ٩٦ .
(٤) لم أجد له ترجمة فيما بين يديّ من مصادر .
(٥) الصورة والبناء الشعري ٧٧ .
(٦) من فضلاء دمشق ، له اشتغال بالأدب ، عمل مدرسا في بعض ثانويات دمشق ، من آثاره (الفصحى في مواجهة التحديات) كما حقق بعض كتب التراث .

إذا قسنا أمور الماضي بالحاضر ... فما قاله ابن خلدون في صلاة الرشيد وحجه إنما هو صحيح ، ولكنا نعرف ناسا ... يصلون ويحجون ويزكّون ، ولكنهم لايستطيعون الإقلاع عن الخمر ، فحجة ابن خلدون في هذا الباب ... مبنية على تصورات العقل ، لاعلى تجارب الأمور الواقعة [١].

هذا ماقاله جبري في تأييد ماروي عن مجالس الشراب والمجون في حضرة الرشيد ، وقد نقده كثيرون في مذهبه في الحكم بصحة كثير مما أورده الأصفهاني في أغانيه ، ومنهم الأعظمي الذي مرّ في هذا البحث ، ومنهم كذلك نذير مكتبي ، الذي وصف دفاع جبري عن روايات الأغاني بأنه جانح عن الصواب ، وأنه ردٌّ ضعيف متداع ، واتهمه بالافتراء على الخلفاء ، وناقش آراءه بروية وشنّع عليه في رفعه من قيمة أخبار الأغاني [٢].

كما اتهمه بالخضوع للعاطفة ، حين أصدر أحكامه المصدقة لكل روايات الأغاني [٣] ، وهو متفق في هذا النقد العنيف مع وليد الأعظمي الذي كانت ثورته على الأغاني شديدة لاهوادة فيها .

وبعد ، فليست تلك الآراء لهؤلاء الدارسين والنقاد ، هي كلُّ ماقيل في شعر جبري ونثره ، ولكنها هي أبرز ماقيل فيه ، وأغلب النقد الذي وُجّه إليه داخل في المعاني الواردة في هذا المبحث .

---

(١) دراسة الأغاني ٢٨٨ .

(٢) انظر : جولة في آفاق الأغاني ٤٧ ، نذير محمد مكتبي ، دار البشائر الإسلامية ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ .

(٣) انظر : المرجع السابق ٧٨ .

(الخاتمـــــــة)

الخلاصـــة :

لقد كان شفيق جبري شاعرا ملء السمع والبصر ، وكاتبا نابغة ، بشهادة أدباء ونقاد كثيرين ، ومن حق مَنْ تلك صفته أن يُفرد بالدراسة التي تغوص في أعماقه ، وتبحث في أسرار أدبه وفنه .

وكان هذا البحث محاولة جادة لتحقيق ذلك ، إذ سرت فيه على نهج مرسوم ، فعرضت باختصار للحالة السياسية والاجتماعية والثقافية في عصره ، حتى يستضيء بها قارئ أدبه ، ويلمّ بالمؤثرات في تكوينه .

ثم خصصت حياته بدراسة مفصلة ، شكّلتْ **الفصل الأول** ، ذكرتُ فيها ميلاده وأسرته وحياته العملية ، ووفاته ، ومؤلفاته ، وأشرت إلى عدم وصولي إلى سلسلة طويلة في نسبه ، وأفضت متحدثا عن ثقافته التي جمع فيها بين التراثين العربي والغربي ، وأطلت في دراسة شخصيته ، فذكرت أهم مميزاتها ، وحلّلتُ بعض الصفات التي رأيت الحاجة إلى الإفاضة فيها .

وفي الفصل الثاني ، عند دراسة شعره ، بيّنتُ أن جزءا كبيرا من شعره لم ينشر ، وقد استدركت على الديوان قصائد ألحقتها بالبحث .

كما درست أغراضه الشعرية ، وقرّرت أن المنحى الوجداني هو أول مناحي شعره ، وأن الاتجاه الوطني والسياسي استأثر باهتمامه ؛ لكونه عاش حقبة احتدم فيها الصراع مع المستعمرين ، أما الشعر الاجتماعي فكان صوته فيه خافتا .

ثم درست خصائص شعره الفنية ، فحكمتُ بأنه شاعر لفظ أكثر منه شاعر معنى ، وأوردت الشواهد على ذلك .

أما الفصل الثالث ، فقد عرضت فيه آثاره النثرية وأشرت إلى المخطوط منها ، ثم درست فنونه النثرية وحكمت بتقدمه في فن المقالة الأدبية ، وإجادته في كتابة السيرة الغيرية ، أما أدب الرحلات فلم يكن ذا تميّز فيه .

وبعد ذلك خصصت أسلوبه النثري بتفصيل ، ذكرت فيه سماته التي يغلب عليها الميل إلى المحافظة ، مع مزجها بما ثقفه من أساليب غربية ، ثم أجملتُ بعض ماشُهر

به من لوازم أسلوبية .

وفي الفصل الأخير ، أثبتت الموازنة بينه وبين خليل مردم تفوّقه في بعض الأغراض ، وتقدم مردم عليه في بعضها الآخر ، ورأيت أنهما متقاربا الأسلوب ؛ لامتياحهما من منهل واحد ، هو التراث .

أما موازنته بكرد علي ، فكانت دليلاً آخر على تقدمه وعلو كعبه في ميدان النثر ، وأنه لم يكن أقلّ من نظرائه ومعاصريه ، ثم كان سرد بعض آراء الدارسين والنقاد عاضدا لتلك الأحكام ، وتاجا لها ، إذ اتفق أكثرهم على الشهادة لجبري بالتجويد الفكري والفني .

ثمار البحث ونتائجه :

ومن خلال دراسة تلك النقاط ، وصلت إلى بعض النتائج ، أجملها فيما يلي :

أولاً : إن اصطباغ شعر جبري بفكرة الالتزام ، ناشيء عن تأثير المنازع الوطنية والإنسانية ، وإن كثرة الفجائع التي مرّ بها مع الرهط الأوائل من الشعراء جعلتهم يميلون إلى أدب الالتزام ، فصار أدب كفاح ونضال ودفاع عن القيم .

ثانياً : لم يكن شعره الوطني محصورا في بلده « سورية » ، ولكنه تعدى الإقليمية ، متجاوزاً إياها إلى القومية العربية الشاملة ، وقليلا مايشير إلى الأمة الإسلامية ، التي تتسع أكثر ، وتصفو كذلك وتنبُل أكثر .

ثالثاً : ينتمي جبري إلى مدرسة البارودي التي حافظت على تقاليد الشعر العربي ، وكل مايتصل بشخصيته ومقوماته ، غير أن هذه المحافظة لم تحُل بينها وبين بثّ عناصر جديدة في أشعارها .

رابعاً : إن ديوان (نوح العندليب) لايمثّل كل ماقاله الشاعر من شعر ، وقد جمعتُ في فائت الديوان الملحق بهذا البحث جزءا من شعره ، بلغ مئتين وستة وثمانين بيتا ، ولا أزعم أنها كل ماقاله .

خامساً : كان لجبري في حياته الشعرية ، هذه المراحل : مرحلة الاحتذاء ، ومرحلة الاقتباس ، ومرحلة الإبداع ، وكان له في صناعته الشعرية هذان الاتجاهان : الاتجاه العفوي في مطلع أمره ، والاتجاه التنسيقي أو التنقيحي بعدما اشتد عوده ،

وظهر أمره .

سادساً : إن جبري سابق في النثر سبْقَه في الشعر ، حيث أسدى للمكتبة العربية دراسات فريدة النمط ، وذلك في دراسته للمتنبي والجاحظ ، وفي درسه للعناصر النفسية في سياسة العرب ، حيث جاء في هذا القبيل بما لم يُسبق إليه ، وإن كانت له هنات لايخلو منها كاتب ولاكتاب .

سابعاً : ومن خلال الموازنة الفنية والموضوعية بينه وبين خليل مردم شاعرا ، وبينه وبين محمد كرد علي كاتبا ، تبيّن علو كعبه في هاتين الصناعتين ، وتقدمه فيهما ، وأنه لايقل عن أقرانه حسن بيان ، ولاروعة إبداع ، وأنه يسبقهما في نواحٍ ، ويتقدمانه في نواح أخرى ، والمرء أبدا سابق أو مسبوق .

وحيث إن هذا البحث محدود بحدود ، ومقصور على المنهج المختّط له ، بقيت جوانب في آثار هذا الأديب ، لم تدرس الدراسة الكافية ، وهي تنتظر من يشمّر عن ساعد الجد ليُتمّ مابدأتُه مع من سبقوني في تحليل أدبه .

فآراؤه النقدية المنبثّة في كتبه ومقالاته ، تشكّل مادة ثرّة ، تستحق أن تفرد ببحث مستقل .

كما أن جهوده اللغوية ذات أثر غير منسيّ ، ومن الوفاء له – كِفَاء ما أسدى لهذه اللغة – أن يدرس من جهة كونه باحثا لغويا متميّزا .

تلك أهم النتائج التي خلصت إليها ، من خلال هذه الدراسة ، مقرونة ببعض المقترحات التي رأيتها جديرة بالعناية .

ولاأزعم أني أتيت في هذه الدراسة على كل مايمكن قوله في شخصية شفيق جبري وأدبه ، فما زال المجال مفتوحا ، ولكن حسبي أني بذلت الجهد ، واستنفدت الطاقة في الحصر والاستيعاب ، والله أسأل العون والرشاد ، وأستمده التوفيق فيما آخذُ ومآذر .